بصائر في الظلمة

١٤٤٧ هـ / ٢٠٢٥ م

أبو جنة الأنصاري

أستاذ الشريعة الإسلامية

غلاف الكتاب من تصميم عبد الله شعيب

www.chaibcalligraphy.com

contact@chaibcalligraphy.com

أو 00213666000028 00213780000199

شعيب

الخطاط عبدالله شعيب

WWW.CHAIBCALLIGRAPHY.COM

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي شكل الإنسان والسماوات السبع، يخلق ويبعث ويفعل ما يشـــاء، وهو مالك العرش الذي لا تُقاوَم شـــدَّته. هو الأبديُّ الأحد، لا شـــيء قبله ولا شـــيء بعده، فإنَّه الحقُّ الأوَّل والآخر. والحمد له أيضاً، هو الذي أقسم بالعصر فقال: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ثم قال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ وَتَوَاصَـــوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَـــوْا بِالصَّـــبْرِ﴾ والصـــلاة والســـلام على ســـيّدنا ونبيّنا محمّدٍ، المبعوثِ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصـحبه وأنصـاره ومن اقتفى أثرهم، يحيون سـنّته قولاً وعملاً إلى يوم الدين.

وهذا الكتاب تتمّةٌ لكتاب بصـــيرة الإنســـان، الذي كان دليلاً للداعية، يرشده إلى كيفية فهم أخيه ودعوته إلى سبيل ربّه. وقد قال العليّ الأعلى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَـنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وقد حُذفت أرقام الآيات عمداً، إذ من اللائق ردّ القارئ إلى كتاب الله العظيم مباشـرةً. وكان عثمان بن عفَّان رضـي الله عنه يقول « لو طهرت قلوبنا لما شـبعنا من كلام الله » فنسـأل من يصـرف الذرّة نحو الشـمس أن يجعل نوره في هذا السبيل، ويهدي خُطى السالك فيه، ويجعل كل صفحة منه خطوةً إلى رحمته. فقد قال ســبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِـكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِـكْ فَلَا مُرْسِـلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ســبحانك اللهم، لا تكلنا إلى أنفســنا طرفة عين، فنحن بحاجة إليك وحدك، وإياك وحدك نستمد العون، وإياك نردد قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ﴾ اللهم اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، فقد قال نبيّك –صـلواتك وسـلامك عليه–: « إن الله تَجَاوزَ لِي عن أمتي الخطأَ والنِّسْـيانَ وما اسْتُكْرِهُوا عليه ». فاغفر لنا يا الله، فلا يغفر الذنب إلا أنت.

وقال الحكماء: « إنَّ النفس تتحرَّك على قدر علم القلب، والقلب لا ينفتح إلا بنور المعرفة الصادقة ». فاحذر –أيها القارئ– هذه النورانية الباطنة، فهي التي تدل على الحق المحجوب وراء حجب الصور والأوهام. وكما قال جلال الدين الرومي: « إنَّ الهيئة الظاهرة للغصن هي أصل الثمرة « .والعلم الحق هو الذي يطهر القلب؛ فإن العلم بلا تزكية وبلاء الباطن عبءٌ ثقيل لا نعمة، وفي ذلك قال سيد الأئمّة في التصنيف، أبو حامد الغزالي: « العلم بلا عمل جنون، والعمل بلا علم لا يكون ». فكل كلمة من كلمات هذا الكتاب يراد بها أن تكون بذرة تُلقى في تربة النفس الخصبة .ونسأل مَن أحكم كل شيء خلقه أن يفيض على هذا المسير من فضله، وأن يجمعنا جميعاً على المحبة الصادقة للحق، الذي هو سبحانه الحقُّ المبين.

الفصل الأول

في الحنين والذكرى

الإنسان بطبعه ميّالٌ إلى ما قد مضى، يستجلي ظلال الماضي بين رغبةٍ وخشية. فالزمان لا يمحو آثارَه التي نقشت في القلب، بل يصقلها، حتى تزداد لمعانًا وخداعًا. والنفس البشرية تعشق استحضار ما آلمها، كأنّ الألمَ ذاته يغدو مأدبةً للروح. وقد سمّيتُ هذا الميل «سُكْرَ الحنين فالإنسان يسكر بذكرياته كما يتلذّذ الشاعرُ بأبياته، أو كما يستدفئ المدخّنُ بوهج رماده الباقي. في التلذّذ بما يُهلك لذّةٌ قاسية، ومع ذلك، كم قلّ من يتجرّد منها. كم من إنسانٍ يعود بتفكّره إلى زوجةٍ فقدها، لا لأجلها فحسب، بل لأجل جزءٍ من ذاته كان يظنّ أنّه وجدَه فيها. فيغدو الزمان المشتركُ بينهما تمائمَ لما قد كان، وكلّ صورةٍ من ماضيه حجرًا

منقوشًا بالحنين في معبد الروح. حتى الجراح العميقة تتزيّن بجمالٍ مأساويّ، لأنّها تذكّر بأنّ المرءَ قد أحبَّ، وأنّه كان حيًّا.

وقد قال الإمام ابن القيم رحمه الله: « الدموعُ رحيقُ القلوب، لا يذوقها إلا من عرف النور، وتوجّه إليه بقلبٍ طاهر » وكم من قلبٍ يتغذّى من سُمِّه، ظانًّا أنّه يجد فيه طعم الحياة. إنّ الذكرى بحرٌ مضطرب، تعكس أمواجه نجومَ السعادة وغيومَ الألم، والإنسان يحبّ أحيانًا ركوب هذا البحر، وإن علم أنّه غارقٌ فيه. فهو يستعذب مشاهدةَ تفتّته، كأنّ تأمّلَ خرائبه يمنحُه مهابةً ما. قال العليّ سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي إنّ الإنسانَ جحودٌ بنعمة ربّه عَنيد، وكم هي قاسيةٌ صورةُ الجحود حين يعشق المرءُ ما يُهلكه ويؤثر ما يُبعِدُه عن الحق .يتعلّق الإنسان بذكرياته، غير أنّه ينسى أنّ ما مضى لا يعود أبدًا. فيمزج الحنينَ بالرغبة، والوجدانَ بالكِبْر، ويظنّ أنّ الماضي ما زال يخبئ له كنوزًا وربّما لاحظتَ أني قلتُ «الرجل» بدل «الإنسان»، لأنّ هذه الحال أعلقُ بجنس الرجال، والعجبُ أنّ النساء قليلًا ما يَقعنَ في مثلها، وسيأتي بيانُ حالهنّ إن شاء الله.

ثمّ إنّ الرجلَ يغوص أحيانًا في متاهة من الذكريات يظنّ نفسه مالكًا زمامها، والحقيقة أنّها هي التي تملكه. يريد أن يقطف الورود الذابلة،

فيحســب أنه يســتطيع أن يمســكها دون أن تجرحه أشــواكها، لكنّ كلّ لمسٍ منها يعيد إلى قلبه ضــعفَه المكنون. يبتســم لماضٍ انقضــى، كأنّ الزمان ينحني لإرادته، غير أنّ الحقيقةَ تظلّ عصيّةً عليه، والماضي مملكةٌ لا تُفتح أبوابُها لأحد .إنّه كمســافرٍ تائهٍ في صــحراء ذكرياته، يفرح حين يلوح له الســراب كأنّه واحة، وما هو إلا خيالُ ظلٍّ يعد بالخصــب ولا يسـقي العطشـان. وفي تلك السـراب، يا للويل عليه! يعود إلى خطاياه لا تائبًا، بل متلذّذًا بحرارة الزلّة ودفءِ الخطيئة المألوف. ومن يبكي على ما فقد لا يبكي لذاته، بل على نورٍ ذاقه يوماً ثم غاب عنه .وهكذا يتشــبَّث الرجل بالذكرى، لا باعتبارها عِبرةً، بل سُــكرًا حُلْوًا مُرًّا، نارًا يلمســها ليشعر بأنّه ما يزال حيًّا .بعد ذلك، ينظر الرجل من حوله، وغالبًا ما يُدهَش من وحدته؛ فالآخرون يمضون قُدُمًا، تُشيَّد حياتهم في نور الحاضر، بينما هو يبقى متشبثًا بأطلال الماضي، كأنّ كل ذكرى قادرة على ملء الفراغ الذي يتّسـع في روحه. وينســى أنّ الكنز الحقّ ليس فيما مضــى، بل فيما يمنحه الله في اللحظة الراهنة؛ في هذا النَّفَس، في هذه النظرة، في هذه الفرصـــة للرجوع إليه. فإنّ الحنين بلا ذِكرٍ للعلّي الأعلى كالماء الراكد، يغذّي سُمّ النفس بدلًا من إزهارها.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم » : ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا حسر عليها يوم القيامة. «

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ويكاد الهلاك يصيبنا! كم أهملنا ذكر الله، فلا شفاهنا تشقّقت من دوام النطق باسمه، ولا أصابعنا تكسّرت من كثرة حركاتها في التسبيح؛ فأيّ جنّةٍ نرجو حقًّا؟ ومع ذلك، أيّها القارئ، كم من مرّة يُفاجأ الرجل بنفسه ضاحكًا من ذكريات قديمة، مرتعشًا من آثار لحظاتٍ ولّت، محبًّا لها وإن كانت تضرّه. تلك الشجون وذلك التلذّذ بالألم الماضي ليست شرًّا خالصًا ولا خيرًا محضًا، بل هي مرآةٌ لإنسانيته؛ صدى قدرته على الإحساس العميق، وتذوّق كل لحظة من وجوده، حتى ما كان منها كسرًا لروحه. فإنّ القلب في حقيقته بحرٌ يتلقى أمواج الماضي والمستقبل، لكنّ بريق الحاضر هو الذي يُطهّره. وقال الرومي: « الماضي والمستقبل لا وجود لهما إلا بالنسبة إليك؛ فهما واحد، وأنت تظنّ أنّهما اثنان » وعلى الرجل أن يتعلّم كيف يتأمّل ذكرياته دون أن يضيع فيها، وأن يتركها تمرّ كما تمرّ السحب في السماء، خفيفةً وصامتة. فليس الذكر الحقّ ما يُقيّد، بل ما يُنير؛ ما يذكّر برحمة الله، ويتيح شكرَه، ويحوّل

المرارة إلى حلاوة، والفراغ إلى خصـــبٍ لنفســـه. وهكذا تتجلّى حكمة الرجل الذي يعرف السير بين الحنين والذكر، بين الماضي والأبدية، بين ظلّ الندم ونور الهداية. قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْـــكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ وقال شـــيخ الإســـلام ابن تيمية رحمه الله: « الذِّكرُ للقلب كالماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟ » وقال رسول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم: «قال الله عزَّ وجلَّ: يا ابنَ آدَمَ، إنْ ذَكَرتَني في نَفْسِـــكَ، ذَكَرتُكَ في نَفْســـي، وإنْ ذَكَرتَني في مَلَأٍ، ذَكَرتُكَ في مَلَأٍ مِنَ المَلائِكةِ -أو قال: مَلَأٍ خَيرٍ منهم » .وفي رواية أصـــح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قال الله عز وجل: أنا عند ظنِّ عَبدي بي، وأنا معه حيث يَذكُرني، واللهِ، لَلَّه أَفرَحُ بِتوبَةِ عَبدِهِ مِنْ أَحَدِكُم يَجدُ ضَـالَّتَهُ بالفَلاةَ، وَمَنْ تَقرَّب إِلَيَّ شِـبرًا، تقرَّبتُ إليه ذِرَاعًا، ومن تقرب إلي ذِراعًا، تقربت إليه بَاعًا، وإذا أَقْبَلَ إِلَيَّ يمشـــي أَقْبَلْتُ إِلَيهِ أُهَرْوِلُ » فحســـنُ الظن بالله يظهر في الأعمال التي تنال بها رحمته ورجاء فضـله؛ فمن عمل صـالحًا ورجا بصـدقٍ قبولَ الله لعمله، وجد ما رجاه، والله يعطيه ذلك، إذ لا شـــيء أعظم عليه ســـبحانه. لكن حســـن الظن بلا عمل إنما هو وهم على الله، ومن اتّبع هواه ورجا منه ما

يحب فهو عاجز .وقوله تعالى: «وأنا معه إذا ذكرني» أي: إن ذكر العبد ربّه بالحمد والتمجيد في نفسه فهو يذكره في ذاته، وإن ذكره في جماعة فهو يذكره في جماعة خير منهم، وهي الملأ الأعلى.

ثم قوله جلّ وعلا: «إن تقرّب مني شبرًا تقرّبت إليه ذراعًا، وإن تقرّب مني ذراعًا تقرّبت منه باعًا، وإن أتاني يمشـــي أتيته هرولة»، فيه بيان أنّ قُرب الله من عبده أعظم من قرب العبد من ربّه إذا توجّه إليه. والذراع تســاوي تقريبًا نصـف متر، والباع هو امتداد الذراعين، و«الهرولة» سـيرٌ سـريع بلا عدْو، وصفة تليق بجلاله عز وجل لا تشابه صفات الخلق. وهذه الجمل الثلاث تدلّ على فضل الله الذي يعطي أكثر مما يُطلب، ويجازي العامل فوق سعيه .وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قالوا: « يا رســولَ اللهِ وما هي رياضُ الجنةِ؟ » قال: « حلَقُ الذكرِ » يقول بعض الشراح إن هذا الحديث عامٌّ في المكان والذِّكر، أي ينبغي فهمه على وجهٍ مقيَّد. والحقّ أن المســاجد هي أفضــل المجالس؛ لذلك يمكن تفســير الحديث على الخصــوص لما لها من فضــل، ولأن صـيغ الذكر فيها من أفضـل الباقيات الصـالحات، المرتبطة بالقرآن. وإلا أمكن القول إن مجالس الذكر تشـمل أيضًـا مجالس العلماء، واجتماعات

الوعّاظ، ومجالس الصـــالحين التي يشـــهد فيها ذكر الله، ومعرفة العقائد والشرائع، وتمييز الأعمال الحسنة والسيئة، والتشجيع والتحذير، إلى غير ذلك. والعلم عند الله.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « يفضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة بسبعين ضعفا ، ويقول : " إذا كان يوم القيامة وجمع الله تعالى الخلائق لحسابهم ، وجاءت الحفظة بما حفظوا أو كتبوا ، قال الله تعالى لهم : انظروا هل بقي له من شيء ؟ فيقولون : ربنا ما تركنا شيئا مما علمناه وحفظناه إلا وقد أحصـــيناه وكتبناه . فيقول الله تبارك وتعالى : إن لك عندي خبيئا لا تعلمه ، وأنا أجزيك به ، وهو الذكر الخفي. » وهي الذكر الخفي. وهذا يشـــير إلى معنى الفناء عند أهل التصـــوف، أي فناء الذاكر في الذكر، وبقاءه في المذكور، كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِـــيتَ﴾ أي: تذكّر ربك عند نســـيانك نفســـك، أو إدراكك لغيبة وعيك — وهو مقامٌ رفيع من اليقظة الروحية.

بعد التأمّل في هذه الكلمات، يتبيّن أن الإنســـان، الغارق في متاهة ذكرياته وحنينه، يجد في الذكر دليلًا وملجأً، فهو الاســـتحضـــار الحيّ لخالقه، الذي يفوق كل عزاء دنيويّ زائل. فبينما لا يمنحه الماضـــي إلا

ظلالًا وأصـــداء أوهام، يمنحه الذكر نبعًا يروي قلبه اليابس من الندم والرغبات المحبَطة. ما دام الإنسان أسيرَ ذكرياته يظلّ كائنًا نصف حيّ، تائهًا بين أســفه وآماله الباطلة. ولكن إذا صـــار الذكر هو الهواء الذي يتنفّسه، أشرق كل لحظة من حياته، وتحوّلت ظلال الماضي إلى سلّم نحو المســتقبل؛ فإنّ من تقرّب إلى الله خطوةً وجد قربه منه أضــعافًا مضاعفة، ومن غاب في استحضار اسمه وجد كمالًا لا تدركه الأيام ولا تمحوه الأحزان.

إن الحنين إذا لم يُطهَّر بذكر الله بقي بحرًا مضطربًا من شهواتٍ وندم، أما إذا امتزج بالذكر صار مرآةً تنعكس فيها الأبدية، جسرًا بين ما قد كان وما هو كائن، بين القلب وخالقه. هنالك يكتشف الإنسان أن الماضي، بدلاً من أن يكون عبئًا، يمكن أن يصبح مدرسةً، فكل ذكرى، وكل ألم، وكل خسارة تتحوّل إلى مادةٍ للسموّ الداخلي إذا ارتبطت بذكر من بيده مفاتيح كل شــيء. ومع أنّ في الإنســان ميلًا فطريًّا للتعلّق بأطلال ما أحبّ، ولو أبعده ذلك عن الحق، فإن الذكر يحوّل هذا الميل إلى طريق نورٍ، ويصبح العبد الذي يســتيقظ على الحضــور الإلهي في خضــمّ ذكرياته متأمّلًا جراحَه بوصفها علاماتٍ على الرحمة. فمن علم أنّ كل ما يراه هو أثرٌ من

آثار الله — حتى في وهج الألم — فلن يضلّ قلبُه أبدًا. طريق الروح مسيرٌ بين الظلّ والنور، بين الذاكرة والنسيان، وفي هذا التماوج تتجلّى مصائر الأرواح. الحكيم لا يسعى إلى محو الماضي ولا إلى إنكار جراحه، بل يتعلّم أن ينظر إليها بعين الصفاء، كالبستاني الذي يعلم أن الأوراق لا بدّ أن تسقط لتُولدَ الزهرة.

وقال أحد الحكماء: « الصبرُ مفتاحُ كلّ باب، والعزاءُ مستورٌ وراء حجاب الحزن » ؛ فذلك الحجاب ليس سجنًا، بل امتحانٌ يعبره القلب ليبلغ السكينة. وهذه المعرفة الباطنية هي ما أشار إليه إمامُنا الغزاليّ في كتابه العظيم *إحياء علوم الدين* إذ قال: «القلبُ محراب، والذكرُ مصباحه؛ فمن فقد المصباح غرق في الظلمات». فالذكر هو المحور الذي تدور عليه حكمةُ النفس، وهو نفَسٌ ربّانيّ في الصدر، من تمسّك به لم يتيه في متاهة الندم ولا في دوّامة الشهوة. فالإنسان، من بين جميع المخلوقات، هو وحده القادر على العودة مرارًا إلى صور الماضي، كرسّامٍ مجنونٍ يعيد تشكيل لوحته. قد يتذكّر حضورَ امرأةٍ كانت فيه من الجمال ما يُربك الزمان نفسه، فيتوقّف على تفاصيلَ صغيرةٍ كمن يحبس أنفاسه لرهفة الشعور. يتذكّر الزهرةَ التي كانت تحبّها، ولونَها المفضّل. وتبقى

تفصـــيلةٌ ما حاضـــرة في وعيه، تتعلّق بقدر حبّه لها ونوعه؛ فإن كان حبّه روحانيًّا صـادقًا تذكّر دقائق الأمور التي صـارحته بها وحده، وإن كان حبًّا شـهوانيًّا دنيويًّا فسيستحضر جسدَها وتفاصيلَه، وشـفتيها وهيئتها، وتلك الصـور تظلّ في ذاكرته قبل اسـمها أو عينيها. يا ويل هذا الإنسـان! تلك القدرة على الرجوع إلى الذكريات، والتمتّع بلحظاتٍ عائدةٍ تُغريه كما تؤذيه، خَصْلَةٌ لصيقة بطبيعته. وليس عجيبًا أن ينقلب هذا التذكّر إلى سُمٍّ بطيء، فبهذا النحو تصـبح الذاكرة مفترسًـا لِمَن تحتويه. فيصـير الذكر بدلاً من أن يكون جسـرًا إلى الحكمة، جدارًا ووهمًا يصـرف النفس عن مقصـــودها الأعلى. القلب المحترق بلهيب الذكريات الغابرة يتخبّط في نشـوةٍ تختلط فيها المرارة بالشـهوة، فيمزج بين ما انقضـى وما يظنّ أنه ما زال ممكنًا. فإن كان قد وقع في الفاحشـــة معها فســـيظلّ يتذكّر ذلك، يســـتعذبه ويحنّ إليه، راغبًا في عودة تلك اللحظات التي يمقتها العليّ الجبّار. وربّما كان زوجًا وأبًا، ومع ذلك يتذوّق ذكرياته الآثمة كخمرٍ باردٍ مزج بالليمون، يشربه خلسةً من نسيانه وخيبته.

هذه المسرحية الحلوة المرّة سُمٌّ خفيّ، ولحنٌ جنائزيّ يعزفه القلب على نفسه. فَرِقّةُ الذكريات تصير شريكةً في الضلال، وتُحاكُ بها شِباكٌ يأسر

بها الإنسانُ نفسه دون أن يدري. الذكرى المنحرفة لم تعد جسرًا بل سجنًا مذهبًا، جمالُها وهمٌ يُبقي أسيرها ظانًّا أنه يذوق طعم الحياة. وهذا نظير الدنيا!

يا للعجب من هذه الاستعارة! فالدنيا في لسان العرب اسمٌ مشتقّ من الدنوّ والسفول، وقد شبّهتُها بامرأةٍ في قولي: « يا دُنيا، أنتِ ليلٌ وضبابٌ فانٍ، جسدُكِ لهبٌ وسحرُكِ تَيهُ الجَنانِ، كعالمٍ زائلٍ وزينَةٍ خادعةٍ، تسحرين بالعطاء والروحُ في الحِصْرانِ. »

أيُّها القارئ، رحِمَك الله، إن علِمتَ فاتّقِ ذكرَك، ولا تستلذَّ تذكُّرَ ما حُرِّمَ عليك، فإن ذلك أولُ طريقِ النسيان لنور الإيمان. كما قال الحكماء: «مَن تَلذّذ بتذكّر ذنوبِه كذكرى جميلةٍ فقد مهّد في نفسه أرضًا لعودتِها، ومن عاش في ماضيه صار عبدًا له.» فيلزم على العبد أن يراقب خواطره أشدَّ المراقبة، خصوصًا تلك التي تدور في فلك الندم أو المتعة الآثمة بالماضي. فليست الذاكرةُ أرضًا حياديّةً، بل ميدانٌ للقتال؛ كلُّ صورةٍ تنبعث فيها قد تكون ثغرةً في حصن القلب. والذكرى العابثة ليست بلا أثر؛ بل هي جذرُ الشهوات المشتعلة وضعفُ السلطان على النفس المائلة إلى السقوط.

وقد يعاود الرجلُ التفكيرَ بتلك المرأةِ نفسها – نسميها «الدنيا» – فيخطر بباله خاطرٌ سريع، فيتذكّر جسدَها وقوامَها، حتى إذا غلبه الشيطانُ سارع إلى لقائها وتدنّى من فاحشةٍ نهى الله عنها، فيقع في العصيان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

فتأمّل قول خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تجاوز لأمّتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلّم به.» وأقول: من سوّلت له نفسه ذكرَ ما حرّم الله أو تفكيرَه في خطيئةٍ ماضية ثم أعادها واقعًا، فليتدبّر قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ويا حسرةً علينا وعلى خطايانا وأفكارنا الدنيّة، فنحن الحجّة على أنفسنا. والوعي بهذه الحقيقة ينبغي أن يحملنا على التيقّظ والحذر، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ فالقلبُ، وهو مسكن الإيمان أو موطن الخطيئة، هشٌّ كالفراشة تحطّ على النار؛ إمّا أن تحترق في لحظة، أو أن تستضيء إلى الأبد. هذا القلب تارةً محرابٌ مقدّس، وتارةً هاويةٌ تضيع فيها أنفاس الروح، فهو أبداً بين نورٍ وظلالةٍ، وسلامٍ واضطراب. ولا بُدَّ من يقظةٍ دائمة لحراسة هذا الكنز من سهام الغفلة والإثم.

واعلم أن القلب في جوهره كفرسٍ جامحٍ، لا يُروَّض إلا بلجام خوف الله، ولا يُهذَّب إلا بحبّ ذكره. قال ربّ العالمين: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه. » وهكذا يكتشف الإنسانُ في قلبه ميدانًا خفيًّا للقتال، حيث تتصارعُ لذّةُ الحرام مع يقظةِ الوعي النبيل. فذكرُ «الدنيا» ليس مجرّد ظلٍّ من الماضي، بل فتنةٌ متجدّدة، ووسوسةُ نَفْسٍ تحاول السيطرة على الروح. ومادام القلب لم يُثبَّت على خوف الله ومحبّته الصادقة، يبقى عرضةً لنداءات الشيطان وغرور اللحظة العابرة.

فعلى المرء أن يتعلّم تيقُّظ القلوب الواعية، فلا يقتصرُ الحذرُ على اجتناب الفعل المُحرَّم، بل يتعدّاه إلى منع الفكرة من أن تُزرع أصلًا. فقوّةُ العبد لا تُقاس فقط بأعماله الظاهرة، بل بسيطرته على باطنه، وكيف يطفئ شرارة الهوى قبل أن تصير نارًا. وقال أحد الحكماء: «نصرُ العبد على نفسه أولُ بابِ قُربِه من ربّه.» فإذا بلغ تلك القربى صار الذكرُ امتحانَه، والامتحانُ نورَه. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « المؤمنُ

القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيفِ وفي كلٍ خيرٌ. » فالقلبُ، وإن كان أضعف ما في الإنسان، قادرٌ على أعظم القوة إن رسَخ في الذكر والتأمّل.

كلُّ ذِكرٍ، وكلُّ نفَسٍ يُخصَّص لاستحضار الله، يقوّي الفرسَ الجامح الكامن في الداخل، ويُروِّضه برفق، ويقوده نحو سهل الصفاءِ الفسيح. ويتعلّم العبد أن الخوفَ والمحبّة ليسا نقيضَين، بل هما متكاملان؛ فالخوف يحميه من المهالك، والحبّ يدفعه إلى جمال القرب الإلهي. ومن عاش كذلك شهد تحوّلًا لطيفًا لكن عميقًا؛ فالذكريات التي كانت يومًا تُعذّب النفس تصير دروسًا وعلاماتٍ ليمضي بحذر، والصورُ لما فقده أو رغب فيه تكفّ عن كونها أغلالًا لتصبح مرايا يعاين فيها الإنسانُ افتقاره إلى الخالق، وضرورة إقبال قلبه كلّه عليه. وهل ننسى أنّ لا نفَس ولا خاطر يضيع عن نظر الله، وأنّ كل جهدٍ صادق يُستقبَل بعطاءٍ أعظم مما يُرجى؟ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». فتأمّل هذا. وطريق النجاة أن يراقب المرءُ ذكرياته، فيدرك ما فيها من جاذبيةٍ وخطر، ويوجّه هذا السيل الباطني نحو نور الإيمان، حتى تذوق

النفسُ المطمئنة الأمانَ الموعود لأولياء الله. والمؤمن يجب أن يُبغض تلك الأمور الماضية التي عصى الله فيها، ويتبرّأ منها، ولا يوليها محبّةً ولا التفاتًا، بل يمقتُ سماعها من أيّ أحد وكأنّها رجسٌ، وإلا فويلٌ له؛ فهو عبدٌ للمحرّم، خاضعٌ للشرّ ودهائه. وتوجد أنواع أخرى من الانشغال الفاسد بالماضي، لكنها أقلّ خطرًا، مثل الانشغال بما فقده: شخصٍ محبوب، أو مكانة، أو حرية، أو زمنٍ قديم كان يظنّ فيه أنّه سيّد مصيره. كالسجين الذي يسرح فكره إلى سهول الحرية التي ذهبت، فالنفس تحبّ النظر إلى ما لا يمكن أن يعود. وهذه ليست حسراتٍ عابرة، بل تصير عذابًا داخليًّا، خيطًا خفيًّا يربط القلب بماضٍ بعيد المنال، ويحوّل كل خاطر إلى لسعةٍ عذبة.

ومن فقد حبيبًا، قد يجد نفسه يخاطب ذكراه كأنّه حيّ، ويعيش مجدّدًا حركاته وكلماته التي لن تعود، فيصبح العقل مسرحًا تعيد فيه الذاكرة عرضَ مشهد الغياب بلا انقطاع، ويستمتع الإنسان بنوستالجيا فيها عزاءٌ وألمٌ معًا. فالخسارة، في حقيقتها، تولّد في القلب مزيجًا من الحلاوة والمرارة، إذ تكشف عمق التعلّق في النفس، وعطشها لما هو فوق عالم الحسّ والمادّة.

الإنســـان مخلوقٌ مدهش، فعلى الرغم من وعيه بفنائيته، يميل دائمًا نحو اللانهائي، ويبحث عن هذا اللانهاية أحيانًا فيما لم يَعُد له وجود، في انعكاسات ماضٍ صار سرابًا. ومع ذلك، ففي هذا التعلّق ذاته تنكشف أعماق النفس البشرية، وقدرتها على الحب العميق، وعلى حفظ لحظات السعادة الخالدة رغم هشاشتها، وعلى إحياء اللحظات الثمينة وإنْ تعذّر عودُها. هذا التناقض هو في آنٍ واحد ضعفٌ وعظمة: ضعفٌ لما فيه من خطر الجمود، وعظمةٌ لما فيه من ثراء الإحساس. والمؤمن البصير يدرك أنّ هذه الحالات ليست مقامات إقامة، بل جسور عبور، فيتعلّم أن يجمع بين ندمٍ نافعٍ ونسيانٍ مخلِّص، وأن يصغي إلى لحن الذاكرة الرقراق دون أن يضيع فيه. ولا يُنكر أحدٌ أنّ القلب البشري هشّ، كثير التناقضات، تتنازعه العواطف. إنّه يعرف ثِقَل الذكرى، ومع ذلك يطلبها، ويدركُ ثمن النسيان، لكنه يأباه، ويعلم أنّ التعلّق بالماضي قد يُقيّده، غير أنّه يتمسّك به كما يتمسّك الغريق بعُوّامةٍ في العاصفة.

الإنســـان – على رغم علمه بجرح الماضـــي – يحبّ الرجوع إليه، لأنّه يجد فيه على نحوٍ غريب حقيقة الحياة التي عاشـــها، وصـــدق العاطفة التي ذاقها، وحرارة الشوق التي جعلته إنسانًا بحق.

الفصل الثاني

في الزمان، والصبر، والتجرد

الزمنُ بحرٌ لا شاطئ له، والإنسانُ زورقٌ هشٌّ يظنُّ أنّه قادرٌ على تسخير تيّاره. كلُّ يومٍ يقطعه يستهلكه شيئًا فشيئًا، ومع ذلك يتعلّق به كأنّه قادرٌ على إيقافه. يصارعِ المحتوم، ويتمسّك بما يزول، ويعذّب بنسيانه أن كلَّ حيٍّ إلى فناء. فمن لم يُدرك هروبَ الوقت ظلَّ عبدًا لرغباته، يعيش في وهم البقاء، وكلُّ خسارةٍ عنده جرحٌ لا يلتئم. قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: اصبر، فإنّ صبرَك لا يكون إلا بالله.

والصبر ليس مجرّد احتمال، بل بصيرةُ قلبٍ؛ أن تعلم أنّ الألم ممرٌّ لا مقرّ. فمن اتّخذه مسكنًا صار عبدًا لوَجَعه، ومن جعله سَفَرًا صار سالكًا طريقَ الحق. فالحكيم لا يفرّ من البلاء، بل يُنصت إليه كمن يُنصت إلى

خطاب ربّه؛ فكلّ شِدّةٍ تحمل في جوفها حكمةً خفيّة وخيرًا مقدّرًا، كما قال سبحانه: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فتأمّل ذلك، فإنّ الله يعلم ونحن لا نعلم. الإنسانُ يجهل ما تحمله له اللحظة التالية، يجهل كم يوماً بقي له من عمره، ومع ذلك يعيش في قلقٍ واضطراب؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: إنّ الإنسان مخلوقٌ جزوعًا، يقلق لما لم ينله، ويجزع لما فات. إنّه قَلِقٌ من مستقبلٍ لا يملكه، وحزينٌ على ماضٍ لا يقدر على تغييره، ناسٍ للحاضر الذي وهبه الله له وديعةً. يركض الإنسان، لكنه لا يدري إلى أين، يخاف الفقد لكنه لا يعرف ما الذي يسعى لحفظه. مضطرب القلب بين الندم والرجاء، بين ما مضى وبين ما يخشى أن يفوته. يتمسّك بالزمان تمسّك الغريق بلوح النجاة، ناسياً أن الزمان مخلوقٌ من مخلوقات الله، وأنّ ربَّ الزمان لا يتعجّل ولا يفوته شيء. قال الحسن البصري رحمه الله: «يا ابنَ آدم، إنما أنتَ أيام، كلّما مضى يومٌ مضى بعضُك. الدنيا ثلاثة أيام: أما أمس، فقد ذهب بما فيه، وأما غدٌ، فلعلك لا تبلغه، وأما اليوم، فهو لك فاعمل فيه. »

ومع ذلك، كم من الناس يضحّون بيومهم من أجل أمْسٍ انقضى أو غدٍ لم يأتِ بعد! يبكون على ما مضـــى، ويتوهّمون ما ســـيأتي، ويغفلون عن اللحظة التي فيها تكمن مسؤوليتُهم. تلك من أعظم مكايد الشيطان: أن يصـــرف القلبَ عن الوقت الذي يســـتطيع فيه العمل، ويشـــدَّه إلى ما لا يملك. الزمن هو أعظم الكنوز وأخفّ الأســـاتذة أثرًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أي: أقسمَ بالعصر — أي بالزمان.

ولم يُقسِـــم الله بالزمان عبثًا، فقد جعله موضـــعَ أفعالنا وميدانَ اختياراتنا؛ فكلّ ثانيةٍ تمضـــي تقتطع جزءًا من وجودنا، وكلّ لحظةٍ نهدرها في الغفلة هي قطعةٌ من حياتنا لا رجعةَ فيها أبدًا.

قال الإمام ابن القيّم رحمه الله: « إضـــاعة الوقت أشـــدّ من الموت؛ لأنّ إضاعة الوقت تُباعدك عن الله وعن الدار الآخرة، وأما الموت فيُباعدك عن الدنيا وأهلها». وقال الحســـن البصـــري رحمه الله: «يا ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما مضى يوم مضى بعضك. » وياله من مسكين، نعم، مسكين! الإنسان المعاصر، لاهٍ غافل، يظنّ بعدُ أنّ الوقت ملكٌ له؛ يظنّ أنّه ينفقه كما يُنفق المال، وهو لا يدري أنّ كل ثانية هي نفَسٌ من حياته ينزعه الله منه ولا يُعيده إليه أبدًا.

تراه يجلس الساعات الطوال، شاخص البصر في بريق شاشةٍ ماكر، معلّق القلب بالظلال المتحرّكة للشبكات والصور، يقلّب أباطيلَها كما يُقلب صفحات الأوهام. عالمُ مظاهرَ وأصواتٍ جوفاء وضحكاتٍ بلا روح. فإذا نزل الليل، تملّكه ضيقٌ على «ضياع الوقت»، ولا يدرك أنّه هو الذي ضيّع نفسَه.

إنسان اليوم لم تعد تشغله أصنامُ الحجر، بل أصنامُ الضوء. الأصنامُ القديمة لا تنطق، وهذه تهمس إلى أذنه بلا انقطاع. لقد استبدل الشيطان سوقَ الباطل بسوقٍ بلا جدران، يبيع فيه المرءُ حياءه ووقته، وربما دينه. تأمّله — هذا الرجل العصري — يصحو من نومه، فأول ما يفعل هو البحث عن ضوء جهازه الأزرق قبل أن يبحث عن نور الصلاة، يغذّي فكرَه باللغو قبل أن يغذّي قلبَه بالذكر، يزن قدرَه بعيون الناس لا بعيون ربّ الناس، تنساب أصابعه على الشاشة دون كلل، لكن لسانه أثقل ما يكون عن قول « سبحان الله » أو « اللهم اغفر لي. » ومسكينٌ هو، إذ لا يرى أنّ كل حركةٍ للمعصم على شاشة جهازه هي سطرٌ يُكتب في كتابه — ذلك الكتاب الذي سيقرؤه بمفرده يوم لا تنفعه فيه الغفلة ولا الإنكار. سيقضي الساعات في النظر إلى وجوه الآخرين، ولم ينظر قطّ

إلى قلبه؛ سيعرف ألفَ رأيٍ وألف جدال، لكنه سيظلّ غافلاً عن رأيه هو في الحياة والموت. سيضحك من كل شيء، إلا من نفسه، حتى إذا جاءت ساعةُ الاحتضار، علم أن ما كان يظنه ملءً لفراغه لم يكن إلا زيادةً في خوائه. فالشيطان لم يعُد بحاجةٍ إلى إغواء الناس بالذنوب العظام، بل علّمهم أن يقنعوا بخسارة الوقت، وهذه أدهى المخادعات. يظنّ الإنسان أنه ناجٍ ما دام لم يقع في المحرّم، وينسى أن التهاون في الوقت عصيان، لأنّه إهانة لأعظم العطايا. يا من تقرأ هذه الكلمات، كم مرة قلتَ: «ليس عندي وقت» وقد أهدرتَ ساعاتٍ فيما لا ينفعك لا في دنياك ولا في آخرتك؟ تذكّر أنّ الوقت ليس ما تملكه، بل ما تفقده؛ وكل لحظةٍ تهبها للغفلة هي بابٌ تغلقه. واعلم أن الحكيم الحقّ ليس من يعرف الكثير، بل من يحافظ على دقائق عمره كما يحافظ البخيل على ذهبه؛ فإن الذهب المفقود قد يعود، أما الوقت الفائت فلا رجعة فيه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغُ » فتأمّل ذلك، واجعل دموعك مدادك. إن لم يكن وقتك مُكرَّسًا لله، فهو ضائع عليك. وإن أردت أن تقيس حالك عند ربك، فانظر ما تصنع بوقتك حين لا يكون عليك عملٌ ولا واجب؛ فهناك

تنكشف حقيقة قلبك. وانظر – أيها القارئ – كم يكشف الوقت عن حقيقة الأرواح؛ فليس في لحظات الجهد ولا في مواطن الإلزام تُقاس الصدق، بل في أوقات الفراغ، حين لا يبقى للقلب عذر في الانصراف.

ما يفعله الإنسان حين يكون وحده، حرًّا، بلا قيد، هو حقيقة ما يكون عليه، وهناك يظهر مدى صلته بربه. ولست أذمّ الانشغال، حاشا، فالإنسان ينبغي أن يحفظ في نفسه روح الطفولة، كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «أروحوا القلوب بشيءٍ من اللهو ليعينها على الحق.» فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن هذه القلوبَ تَصْدَأُ كما يَصْدَأُ الحديدُ إذا أصابه الماءُ.» وفي القصيدة البديعة لجلال الدين الرومي، جاء فيها:

قال شابٌّ وهو ينادي الناس من حوله:

–أحتاج إلى حكيمٍ، عندي مسألة.

فأجابه أحد المارّين:

–ليس في مدينتنا من هو أعقل من ذلك الرجل هناك، الذي يلعب مع الأطفال، راكبًا حصانًا من خشب. إن له نظرة نافذة وبصيرة حادّة، ووقارًا عميقًا كسماء الليل، لكنه يستتر وراء جنون ألعاب الصغار.

فاقترب الشابّ من الأطفال وقال:

–أيها الشيخ، أنت الذي صرت مثل الأطفال، أخبرني بسرٍّ واحد.

فقال الحكيم:

–ابتعدوا عني! اليوم ليس يوم الأسرار!

–أرجوك... أقبل بحصانك لحظةً فقط.

فاصطنع الحكيم الجري بحصانه، ثم قال:

–أسرعوا، لا أستطيع السيطرة على هذا الوحش طويلًا! احذروا من رفسته، فهو دابة جامحة حقًّا!

فشعر الشابّ أنه لا يستطيع طرح سؤاله في هذه الأجواء المليئة بالجنون، فبدأ يمزح قائلًا:

–أريد أن أتزوّج، أفي هذه الطريق امرأة تصلح لي؟

فقال الحكيم:

–النساء ثلاث: اثنتان بلاء، وواحدة كنزٌ للنفس.

الأولى، حين تتزوجها، تكون لك كلّك.

الثانية، نصفها لك.

والثالثة، ليست لك أبدًا.

والآن تنحَّ بعيدًا قبل أن يركلك هذا الوحش في رأسك! هوووه، اهدأ، ارجع...

ثم مضى الحكيم راكبًا حصانه مع الأطفال. فصاح به الشاب:

–حدّثني أكثر عن هذه الأنواع الثلاث من النساء!

فعاد الحكيم وهو ما يزال على حصانه الخشبي وقال:

–العذراء التي تكون أول حبٍّ لك، هي كلها لك؛ تُسعدك وتحرّرك.

أما الثانية فهي الأرملة بلا ولد، فهي نصفها لك.

وأما الثالثة، فلن تكون لك أبدًا، فهي التي أنجبت ولدًا من زوجٍ سابق، وكل حبّها لذلك الولد، ولن يكون لك معها وصالٌ حقيقي.

والآن، تنبّه! تقهقر قليلًا، أريد أن أدير هذا المخلوق العجيب دورةً أخرى.

دار الحكيم دورةً كبيرة ثم عاد، جامعًا حوله الأطفال، فقال الشابّ ثانية:

–سؤالٌ آخر يا معلّمي!

فالتفت الشيخ قائلًا:

–ماذا بعد؟ أسرع، فذاك الفارس الصغير هناك ينتظرني، وأظنّني قد

أحببته أيضًا!

قال الشابّ: ولماذا هذه المسرحية التي تمثلها؟ لِمَ تُخفي علمك بهذا الجنون؟

فأجاب الحكيم:

–أهل هذه البلدة يريدونني حاكمًا وقاضيًا ومفسّرًا لكل كتاب، لكن علوم قلبي تأبى ذلك، إنها تريد أن تتذوق الحياة. أنا مزرعة قصب سكر، وأريد تذوّق حلاوتي قبل أن أُعصر. العلم الحقّ لا يُقاس بالشهرة، وهؤلاء العلماء يريدون دومًا معرفة إن كان الناس يحبّونهم؛ علمهم طُعمٌ لشهرتهم. العلم النظريّ يبحث عن زبائن، لكنه بلا روح؛ قويّ بحضرة الجماهير، ضعيفٌ إذا خلا منها. الجمهور الوحيد الذي يستحقّ الإصغاء هو الله. فامضغ هذا الإله المحبّ بهدوء، فهو أحلى من قصب السكر، واحتفظ بروحك الطفولية، فوجهك سيورق وردًا كزهر شجرة اليهوذا.

*****

وهكذا، فإن قلب الإنسان يحتاج إلى لحظات من الخفّة واللهو، لكنه يحتاج كذلك إلى رعايةٍ وصيانة. فإن لم تطهّره بالذكر تراكمت عليه أدران اللذّات، وإن لم تقوّمه بالصلاة اعوجّ تحت ثقل اللهو. الحكيم هو من يذوق اللعب دون أن يغرق في جنون الدنيا — كذاك المجنون الحكيم الذي وصفه الرومي، يخفي نوره وراء ضحكات الأطفال.

الإنسان المعاصر قد شاخ قبل أوانه، لا بفعل العمر، بل بهمّ القلب. فقد فقد القدرة على الدهشة، واستبدل التأمل بالاستهلاك، يريد أن يفهم كل شيء، ويُحكِم السيطرة على كل شيء، ويُثبت كل شيء — وفي هذا الهوس نسي أن يعيش. يظن نفسه ناضجًا لأنه لم يعُد يلعب، لكن في الحقيقة، إنما فقد سعادة اللعب المقدس: لعبة الوجود المَعيش بوصفه آيةً من آيات الله. من حفظ في نفسه روح الطفولة بقي خفيفًا، متواضعًا، منفتحًا؛ يضحك من الدنيا دون أن يتعلّق بها، فإذا أصابه البلاء بكى كالطفل، لا جزعًا بل صدقًا، يصلي بنفس الانقياد الذي يمدّ به الطفل ذراعيه إلى أبيه. تلك هي النضوج الحقيقي: قلب عاد إلى البساطة دون أن يسقط في السذاجة. الحكيم الذي يلهو مع الصغار قد أدرك ذلك؛ يعلم أن المعرفة بلا محبة تصير كِبرًا، وأن العقل بلا لعب يصير جمودًا.

الدنيا لمن ما زال يعرف كيف يُعجب ويتعجّب، لأن الدهشة أول خطوة إلى الشكر، والشكر أول خطوة إلى الله.

وذلك الحكيم الذي كان يضحك مع الأطفال لم يكن لاهيًا، بل كان فاهمًا أن الزمن لله وحده، والإنسان فيه أمينٌ لا مالك. من تعلّق بالوقت فقده، ومن تجرّد عنه وجده، فالتجرّد ليس هربًا من الدنيا، بل تحررٌ من الانتماء إليها. الإنسان المأسور بالزمن يعيش في انتظار: ينتظر أن تتبدّل الأحوال، أن تزول الفتن، أن تهدأ الجراح. وأما الحكيم فيعيش في حضور العليّ الأعلى، لا يجزع، لأنه يعلم أن الزمان لا يُؤخر ما عجّله الله، ولا يعجّل ما أخره. فالصبر عنده رحيلٌ في مجرى الوقت دون الغرق فيه، ومن تعلّم الانتظار بلا شكوى فقد ذاق طعم الحرية الباطنة — تلك الحرية التي لا تتوقف على سرعة الأيام. وأما التجرّد فهو أخو الصبر، بل زهرةُ الصبر. فحيث يمنعك الصبر من السقوط في اليأس، يعتقك التجرّد من شهوة التحكم. فالأول مقاومة، والثاني تحرّر. المتجرّد لا يحتقر الدنيا، إنما يقطعها كسائرٍ يعرف طريقه فلا يتوقف لجمع الحصى. يعمل ويحبّ ويبتسم، لكنّ قلبه لا يُقيّده شيء، لأنه لا يعتمد إلا على الله.

قال العليّ سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تلك هي طريق النجاة: ألا تُقصيك الخسارة، ولا تُعميك النعمة. فالتجرّد ليس انعدام الإحساس، بل حضور الحكمة؛ وهو التسليم بأن لكل شيء نهاية، ما خلا الله جل جلاله.

يا من تقرأ، افهم هذا: من تعلّق بالزمن صار عبدًا للدنيا، ومن تعلّق بالله صار سيّدًا لوقته؛ فالزمن لا يفلت منه — بل هو الذي يصوغه، يجعل من كل دقيقة عملاً، ومن كل نفسٍ ذِكراً. فالتجرّد ليس احتقار الأشياء، بل حسن استعمالها، وهو ألّا تضع في قلبك ما هو فانٍ، فإنّ القلب لا يسع إلا واحدًا؛ إمّا أن يسكنه الله، أو تسكنه الأشياء، ولا يجتمعان أبدًا. فإذا تحرّر قلبك من الدنيا، زال القلق من الزمن، فلا تخاف ما يهرب، ولا تتعجّل ما يأتي، تعيش في سلام اللحظة الراهنة، وهذه اللحظة إذا عمرها ذكر الله صارت أبدية. وهذا هو سرّ التجرّد: ليس هروبًا من العيش، بل عيشًا بلا أسر. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك.«

والتجرّد الحقّ هو أن تمشـــي في الحياة دون أن تُثقلك غبار الدنيا، أن تمتلك بلا أن تُمتلك، أن تتذوّق بلا أن تتعلّق، أن تعطي بلا خوف من الفقد. أنت لا تردّ عطايا الله، بل تستقبلها بالشكر، دون أن تُقيّدك. وقال رسـول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»، وقال أيضًـــا: « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة، إن أُعطي رضـي، وإن لم يُعطَ سـخط ». وقال ربّنا جل جلاله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ بعد ذلك، رأيت رجلاً يمشـــي في أزقّة الحياة، جبينه مكدود، وقلبه مثقل بألف قيدٍ لا يراها، يتكلم عن التجرّد لكنه يتشـــبّث به في الكلمات التي ينطق بها؛ يقول: «لا أريد شـيئًا»، وهو يرتجف عند أدنى فقدان. يبني مسـاكن لأيامٍ قليلة، ويتعب في تزيين ما سيتركه. رأيته يعدّ ممتلكاته ومشـاريعه وسـنينه، وكأنه يربطها بعينيه، لكن الزمان ينفلت من بين أصـــابعه كالرمل الحار، ولا يفهم أنّ النار التي يشـــعر بها ليســـت في الرمل، بل في تعلّقه. يملك بلا راحة، ويشـــتهي بلا نهاية، ويظن أنه يعيش وما هو إلا منتظر، فإذا نال ما أراد أحسّ ظلّ النقص، لأنّ نفسه ألفت الانتظار أكثر مما ألفت الشكر.

وقال الحكيم: «ليست الخسارة هي ما يثقل عليك، بل عجزك عن إدراك أن ليس لك شـــيء، إنما أعيَتك الدنيا لأنك تريد حملها، وهي مجرد جســـر، اعبره ولا تســـكن». فالتجرّد الحقّ لا يُرى في الثياب الزهدية ولا في الخطب، بل في عيني من لا يخبو إذا سُلب منه شيء، الذي يبتسم عند الفقد، لا عن بلادة، بل عن يقين، لأنه يعلم أنّ الرزّاق لا ينســـاه، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ رأيته — ذلك الحكيم — جالسًـــا تحت ظلّ شـــجرة، يداه فارغتان لكن قلبه عامر، ينظر إلى الدنيا تمرّ أمامه كقافلة من الســراب، فلا يلعن مرور الزمان، ولا يقصــر الشــيء لســـرعة فنائه، لأنه أدرك أن كل ما يزول يشـــير إلى الذي لا يزول، ويقول بهدوء: « لا أملك شـــيئًا، ولا شـــيء يملكني، قلبي ليس لأحد إلا لمن صـــاغه، فإذا تركتني الدنيا، لم تنتزع مني شـــيئًا، إنما تذكّرني بطريق العودة. »

ويقوم، نظره ســـاكن، وكتفاه خفيفتان، لا شـــيء عنده ليُثبته، ولا شـــيء ليخســـره، يعيش كل لحظة كأمانة، وكل فقدان كتحرّر؛ إذ قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾

وما أعجب أن يكون عند الإنسان مصاحفٌ بلسانٍ يفهمه، بل بلغات الأرض كلها، يعرف قراءة ألفاظها ومعانيها، ومع ذلك لا يدرك أنّ المؤلف هو الذي خلقه وصوّره، وأطعمه وهداه! قال سبحانه في عظمته:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

فهذه مأساة الإنسان: يسمع ولا يفهم، يبصر ولا يُدرك، صار قلبه صدىً لا منبعًا، يردّد ألفاظًا ما عاد لها حضور في روحه. يا لحزنه، لقد استبدل التأمل في السماء بوهج الشاشات البارد، وأوهم نفسه أنّه يملك المعرفة، وقد أضاع طعم الحكمة، يظنّ أنه يعلم كل شيء، وما عاد أن يرى بعين البصيرة، يلهو لينسى أنه يهلك نفسه. رأيته جالسًا على مقعد، عيناه معلّقتان برقصة تافهة لا تنتهي، يقول إنه متعب، وما تعب إلا قلبه، أما الجسد فلا. يبحث عن السكينة وسط الضوضاء، وعن الفرح في الفراغ، وعن الحب في المظاهر، ولا يعلم أن ما يسميه «متعة» إنما هو تهدئة مؤقتة لفراغٍ يغذّيه بنفسه.

يا من تهب وقتك لما لا يرفعك، ماذا يبقى لك إذا انطفأ كل شـــيء؟ تقول: «لا وقت عندي لله»، وهو الذي منحك الوقت! كل لحظة تذكرة، وأنت تجعلها لهوًا. تقول إنك تريد الحرية، وأنت عبدٌ لنظرات الناس، سجين الصورة التي تريد إظهارها، أسير صدى فراغك. إن أكبر مصيبة للإنسان المعاصر ليست في قلة الوقت، بل في إسرافه لنسيان غاية وجوده.

الفصل الثالث

في الوحدة والحضور

هناك صمتٌ يفرّ منه الإنسان أكثر من أي شيء آخر: الصمت الذي يلتقي فيه بنفسه.

فالإنسان، بطبيعته، ممزَّق بين قطبين متناقضين متكاملين: التطلّع إلى الصحبة، والميل إلى العزلة. يطلب دفء الآخرين، ويخشى في الوقت نفسه اختناق توقّعاتهم. يحيط نفسه بالوجوه، لكنه يفعل ذلك كثيرًا ليفرّ من الوجه الذي يحمله داخله. يتكلّم، ويضحك، ويخالط، ومع ذلك، وفي أعمق أعماق قلبه، يشعر بذلك الفراغ الذي لا يملؤه شيء ولا أحد. إنه فضوليّ تجاه أرواح الآخرين، لكنه يغفل عن روحه. يتتبّع حركاتهم، وأقوالهم، وصمتهم، كأن فهم حياتهم يعفيه من تفحّص حياته. فإذا وجد

نفسه وحيدًا، اضطرب، لأنه يلتقي حينها بصاحبٍ أهمله طويلًا: ذاته. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة ركاب.»

العزلة عند الإنسان ليست دائمًا اختيارية؛ قد تنقضّ عليه كظلّ بعد فقدٍ أو خيانة أو تلاشي رباطٍ ما. وفي هذه العزلة القسرية يتخبّط، يبحث عن ملء الصمت، ويحاول ستر الفراغ بالضوضاء، والحركات، والكلمات. سيقول بعضهم إن العزلة ليست عدوًّا، لكنهم يخطئون؛ فالعزلة تنخر الإنسان من الداخل، سواء كان منفتحًا أو منطويًا، والعزلة غير المقصودة ولا المطلوبة قد تقتل المرء. أما الإنسان المعاصر فيستنزف نفسه بحثًا عن الصحبة ليخفي فراغه الداخلي، فيملأ أيامه بالتسلية، والتنبيهات، والمحادثات السطحية. قال اللّه، مالك يوم الدين: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنه بين الناس، لكنه غائب، يظن نفسه حيًّا لأن جسده يتحرّك ولسانه ينطق، لكن روحه تتيه في صحراء ينساب فيها الزمان بلا ثمرة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

الشبكات، والشاشات، والضحكات المصطنعة هي أصحابه، وكل لحظة يهبها لها هي لحظة تباعده أكثر عن ذاته.

رأيت هذا الرجل جالسًا في مقهى، نظره معلّق بهاتفه، تحيط به أصواتٌ، وضحكات، وكؤوس تتصادم، ومع ذلك فقد بدا وحيدًا. ينتقل من محادثةٍ إلى أخرى، ومن شاشةٍ إلى أخرى، وكل إشعارٍ كأنّه طوق نجاة يُلقى في محيطه الداخلي، يظن أنه يتغذّى، لكنه يظلّ جائعًا. وآخر، في سيارة القطار، يضحك مع زملائه، يتبادل القصص والآراء، لكن فكره يعود دومًا إلى بيته الذي تركه، إلى حبٍّ ضائع، إلى مشروعٍ لم يتمّه، يحمل ماضيه كمعطفٍ أثقل مما يحتمل، وعزلته هناك، مختبئة بين ثنايا ابتساماته وكلماته. وثالثٌ يظن أنه يهرب من الوحدة بالسفر، وبالانتقال من مدينة إلى أخرى، وبكثرة المعارف، يحيط نفسه بوجوهٍ مجهولة، لكن الفراغ يلازمه، في المقاهي، وفي الشوارع، وفي الفنادق، يتحدث، ويستمع، ويراقب، لكنه ما إن يغمض عينيه حتى تدركه ظلال الصمت. فالزحام لا يملأ النقص، بل يزيده قسوة أحيانًا، لأنه يقارن نفسه، ويحكم، ويقيس ذاته بما يرى. قال العليّ الأعلى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

وشاهدت أيضًا إنسانًا يعرض عن ذكرياته، وأحزانه، وغضبه، كأن تجاهل روحه يملأها، يركض، ويسرع، ويتكلم، ويتحرّك... ومع ذلك، فإن كل حركةٍ تذكّره بأنه ليس مكتملًا، وأنّ صحبة الناس لم تكفِ يومًا لمحو الإحساس بالفراغ الذي يحمله منذ الأزل.

وفي هذه المشاهد تكمن جمالياتٌ مأساوية غريبة: فالإنسان قد يكون بين الناس، صاخبًا، ظاهرًا، ومع ذلك وحيدٌ كالسفينة التي تاهت في الضباب. يركض وراء وهم الحضور، وهذه الركضة نفسها هي التي تُتعبه وتقرّبه من السقوط، بل تدفعه أحيانًا إلى لحظة تأملٍ عابرة يواجه فيها الرفيق الذي طال فراره منه — نفسه. كل وجهٍ يصادفه، وكل ابتسامةٍ يتبادلها، وكل كلمةٍ يسمعها أو يقولها، إنما هي مرآة، خريطة لعالمٍ لم يتسنَّ له أن يكتشفه بعد: قلبه هو. وفي تلك المرآة، تطفو أحيانًا ظلال الوحشة أكثر جلاءً، لأنّها لم تكن يومًا في غياب الناس، بل في غياب النظر إلى ما هو عليه في حقيقته. قال اللّٰه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

في الحقيقة، لا يكتشف الإنسان ذاته إلا بذكرها وتأملها، فمن اعتاد المقام بين القاذورات نسي رائحتها. يركض من مكانٍ إلى آخر، ومن وجهٍ إلى وجه، ظنًّا منه أنّه يملأ فراغًا لا تسده أيّ صحبة. الأصوات، والضحكات، والكلمات ليست إلا أقنعةً تُلقى فوق صمته الداخلي. ينسى الإنسان أنه يحمل بداخله عالماً كاملًا، متاهةً من الذكريات والمخاوف والأمنيات، لم يمنح نفسه فرصة التجوال فيها.

رأيته في شقته، محاطًا بالأشياء والكتب واللوحات، يجلس، وعيناه تهربان من الفراغ الذي في قلبه. يظنّ أن ما حوله يُعرّفه، يطمئنه، يواسيه، لكنها ليست إلا زينة على مسرحٍ هو بطله الوحيد الذي يأبى رؤيته. كل شيءٍ يلمسه، كل صورةٍ يتأملها، كل كلمةٍ ينطقها ليملأ بها الصمت، ما هي إلا هروبٌ إلى الخارج، محاولةٌ لئلا يسمع ما سكت عنه طويلًا. فإذا حلّ الليل، وخمدت الضحكات، وصمتت الإشعارات، بقي وحيدًا أمام نفسه. حينئذٍ تخرج الأسئلة التي حاول تجنّبها: من أكون إذا لم يرني أحد؟ ماذا يبقى منّي إن لم يكن لي ما أقدّمه ولا ما أظهره؟ ما قيمة وجودي إن لم أتحمل نظري إلى نفسي؟

إن الإنســـان في الغالب لا يخاف وحدة المكان، بل وحدة القلب؛ يفرّ من مواجهة نفسه خشية أن يرى ضعفها، وندمها، ونقصها. ومع ذلك، فهنا تكمن مفاتيح الحضور الحقيقي، إذ لا رفيق أصدق من صلة المرء بنفســـه. حين يجرؤ على النظر في فراغه وظلاله، يمكنه أن يحوّلها إلى نور، ويغدو العالم حوله ليس مسرحًا للغواية، بل مرآةً للحقّ.

فالإنسان قد يكون بين ألف صوتٍ وصورةٍ ويبقى صامتًا من الداخل، وقد يكون وحيدًا، فيســـمع أســـرار روحه العميقة. لكن قليلون من يمتلكون شجاعة هذه العزلة الأخيرة، لأنها أعظم من كل معركةٍ خارجية. وفي هذا الشجاعة، يكتشف أن حضور الآخرين ليس إلا صدىً للحضور الذي يزرعه في داخله. ورأيته، ذلك الإنســـان، وقد أغلق على نفســـه أبواب العزلة، حتى تغيّر مع الزمن. تحوّلت خواطره إلى أصداءٍ يحسبها أصواتًا غريبة، وصـــار الصـــمت جدرانًا تضـــيق من حوله. كل غيابٍ لآخرٍ كان يحفر فيه قلقًا خافتًا. فقد البوصـــلة، والتبســـت عليه الأيام، حتى لم يعد يميّز بين ما هو واقعيّ وما هو وهم. ينظر حوله فيرى أشكالًا ووجوهًا، لكن وجودها لا يملأ الفراغ. صـــارت حركاته آلية، وكلماته أحيانًا بلا معنى، كأنّ الجسد يخادع العقل لينسى أنه بلا رفيق.

العزلة غير الطوعية تُولِّد تعبًا خفيًّا، إنها تستهلك الحكم وتشوّه الإدراك، تُفسد الذاكرة والرغبة في الحياة. ليست فقط قلبًا يعتريه الظلام، بل عقلًا يبهت وبصرًا ينغلق عن العالم. وأحيانًا، تصبح العزلة أكثر من حملٍ ثقيل: تتحوّل إلى سمٍّ صامت، تُشكّل الإنسان على صورتها، تجعله حذرًا، بل عصبيًّا، وعاجزًا عن أدنى صبر! تنفجر انفعالاته لأتفه الأسباب، وتتداخل أفكاره كالعُقَد المشدودة، وينتهي به الأمر إلى كراهية ما لا يفهمه. هو بين الناس لكن وجوده غائب؛ يتكلّم، لكن كلماته فارغة. يا لحسرة عليه، فقد جعلته العزلة غريبًا عن نفسه، وهذا الغريب يسير بين الأحياء، غير مرئيّ لحياته. الخطر لا يأتي من الانعزال فحسب، بل من الوهم بأنه غير موجود. يظن الإنسان أنه يهرب من حاله بكثرة اللقاءات، وبحثه عن الضوضاء أو التسلية، لكن العزلة غير الطوعية حين تستقر، تخترق الواجهة وتضرب أضعف ما فيه: الثبات الداخلي.

شيئًا فشيئًا، تغيّر الحياة إلى سلسلة من الحركات الآلية، والأيام بلا ألوان، حيث تختلط ذاكرة الأفراح والأحزان، ويمتد الزمن بلا أن يمنح راحة. ويصل الأمر عند البعض إلى خلق وجودات وهمية لملء الفراغ:

يصطنعون حوارات، وينسبون نوايا، ويقنعون أنفسهم أن ثمة من يراقبهم أو يحكم عليهم، والحقيقة أنه لا أحد هناك.

الأشدّ قسوة أن الإنسان لا يرى أنه هو نفسه مصدر آلامه؛ فالعزلة تصبح مرآة وعدوًّا في آن، تكشف وجوهًا من ذاته لم يرد يومًا أن يلقاها. وهي لا تظهر فقط في غياب الآخرين، بل تتسلّل في كل زاوية من حياة المرء، تنخر ثقته بنفسه، وتحيل رغباته هواجس، وذكرياته قيودًا. يفاجَأ المرء وهو يكرّر في نفسه محادثات لم تحدث، ويمعن في استرجاع أفعال أو كلمات تمنّى لو حفظها أو محاها. تمر الساعات متشابهة غامضة، حتى يفقد العقل إحساسه بما هو حقيقي. ويغدو ما يشعر به أوضح عنده من الواقع نفسه. القلب، حين يُحرم من النور، يتيبّس. العزلة غير الطوعية تجعل الإنسان متشكّكًا، غيورًا من حياة الآخرين، حاسدًا لأبسط بريق فرح لا يملكه. تتضخّم الانفعالات: الحزن يصير عميقًا، والغضب كالبرق، وحتّى الخوف يستقرّ فيه كمخلوقٍ كامنٍ يترصّد عند أول حركة.

ينسى الإنسان أن الدنيا واسعة، وأن الصحبة البشرية مهما عظمت لا تستطيع أن تملأ الفراغ الداخلي الذي يرفض النظر إليه. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾

ويكمن الخطر أيضًا في الخلط بين الوجود وبين الانتباه؛ فقد يكون بين ألف وجه، يسمع ألف صوت، ولا يختبر لقاءً واحدًا حقيقيًّا. العزلة غير الطوعية تولّد عمًى دقيقًا: يظن نفسه حاضرًا في الزحام، لكن عقله هائم في مكان آخر، غير قادر على الثبات. يجمع معارف وتجارب وممتلكات، لكن روحه تبقى كغرفة فارغة لا يدخلها أحد، حتى هو نفسه.

حينها، تنطوي بعض الأرواح على ذاتها، تراقب نفسها بريبة، تخشى أن تكتشف عيبًا أو فجوةً أو فراغًا يعجزون عن تحمّله. كل صمت يتحوّل إلى تهديد، وكل لحظة بلا شغل إلى عذاب. العزلة غير الطوعية تحوّل أبسط الغرائز إلى أسباب للتوتّر: وجبةٌ على انفراد تصبح عبئًا، وصمتٌ يضحي خانقًا، وتكرار حركةٍ ما يأخذ شكل طقسٍ عبثي. والأقسى أن الإنسان لا يدرك دائمًا الخراب الزاحف، يظن نفسه قويًّا، مستقلًّا، قادرًا على تحمّل الغياب، لكن عقله يتفتّت، وقلبه ينكمش. تتحوّل العادات إلى سجون، والذكريات إلى أشباح، وحين تمسّ العزلة ظلّه في العمق، يكتشف أن البلاء الحقيقي ليس من الخارج، بل في أنه لم يتعلّم يومًا أن يسكن عالمه الداخلي.

عندها يصبح الصمت متّهمًا وكاشفًا في آن: يفضح الإهمال، وغياب الانتباه، والخوف من القرب من الذات. وما يمكن أن يكون فرصة للمعرفة والعمق، يتبدّل إلى سمٍّ، لأن الإنسان يرفض النظر إلى نفسه؛ وبهذا الرفض، يهدم ذاته.

كل فقدانٍ لرباطٍ صادق مع نفسه يصبح صدعًا في قدرته على الحب، والعمل، ورؤية العالم. وفي هذا التحوّل البطيء، تكشف العزلة غير الطوعية هشاشة الإنسان، وتُعجّل بضرورة فهم ما يهرب منه: ليس الناس، بل اللقاء بما يحمله في داخله منذ الأزل. وتُظهر أن الحضور الحقّ ليس وجوه الآخرين فحسب، بل ذاك الذي ينشئه المرء في قلبه وعقله، حيث لا يستطيع العالم أن يدخل، ولا أحد أن يملأه. الخطر ليس نفسيًّا فحسب، بل هو روحيّ أيضًا. ينسى الإنسان أن كل لحظة وعيٍ هي وديعة حياة. يتحوّل الصمت إلى فراغٍ لا يتعرّف فيه على نفسه، وغياب الحضور الحقيقي يُبعِده عن كل صلة مقدسة — سواء كانت بشرية أو إلهية. قال العليّ سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

يظنّ الإنسان أنه يجمع المعارف والتجارب، لكن من دون هداية البصيرة الداخلية، يصير كل ذلك عبثًا. فينحرف بعضهم نحو تسلياتٍ مظلمة:

إفراطٍ، وشـــهواتٍ، وثرثرةٍ، ونقاشـــاتٍ بلا جدوى؛ فيغرقون في ســـطحية الأهواء حتى تنطفئ أرواحهم شيئًا فشيئًا. والفقر الأعظم ليس فقر المال، بل فقر القلب، وهو عين ما يحدث حين تُفرض العزلة على الإنســـان — يكون محاطًا بالأشياء والبشر، لكنه عارٍ أمام ذاته. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وســـلم: « أَقْرَبُ ما يَكونُ العَبْدُ مِن رَبِّهِ، وهو ســـاجِدٌ، فأكْثِرُوا الدُّعاءَ. » ولا بدّ من التنبّه إلى أن العزلة ليســـت دائمًا بلاءً؛ فإذا كانت باختيارٍ وهديٍ من الإيمان، صـــارت وســـيلة لتطهير القلب، والقرب من الله، والنجاة من المؤثرات الفاســـدة. فالاعتكاف مثالٌ على ذلك — تلك الخلوة التعبدية التي يعتزل فيها العبد الناس متوجّهًا إلى ربه، مناجيًا متأملًا بعيدًا عن صخب الدنيا وهمسها.

وقد وضـــع الإمام البخاري بابًا بعنوان: « الخلوة تريح المؤمن من صـــحبة الســـوء ». فالبُعد الاختياري ليس انســـحابًا من الحياة، بل وســـيلة وقائية لحماية القلب من أسـباب الضـلال. وقال رسـول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم: «يكاد يكون خير مال المسـلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن«.

وسُـئل حكيم: «إلى أين أوصـل الزهدُ والعزلةُ العُبّاد؟» فقال: «إلى معرفة الأُنس بالله.» وقال أويس القرني رحمه الله: «لا أتصـور أن من وجد السكينة والأنس في عبادة ربه يمكنه أن يجدها في غيرها«.

وقال أيضًا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا ضُيّعت الأمانة وظهر الخلاف بين الناس وقد كانوا هكذا — وشـبّك بين أصـابعه — فاعتزل أمرهم.» فقال ابن عمر: «فما تأمرني إن أدركت ذلك؟» قال: «الزم بيتك، واملك عليك لسـانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تُنكر، واعتنِ بشـأن نفسك، ودع شأن العامة. » وقال إبراهيم بن أدهم: « لا تزُر من لا تعرف، وتجاهل من تعرف. » وقال رجل لأخيه: « أيمكنني أن أرافقك إلى الحج؟ » قال: « يكفينا أن الله ستر عيوبنا، فإني أخشى أن نرى من بعضنا ما يجعلنا نتباغض.» وقيل: «من اعتزل الناس أحبّه الناس جميعًا. »

إنّ العزلة الاختيارية تزرع في القلب درس الزهد، فمن تأمل زينة الدنيا قلَّ طمعُه وضعفت تبعيتُه لمادياتها وثناءِ الخلق. ومن جعل خلوته ميدان تأملٍ وعبادةٍ أدرك أن الرضا الحقّ لا يُنال من الخارج، بل من السكينة الداخلية وحضور الله في القلب.

وقال النبي صــلى الله عليه وآله وســلم: «انظروا إلى من هو دونكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألّا تزدروا نعمة الله عليكم.» وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

فالعزلة المختارة ليســت خواءً، بل بســتانُ نورٍ، وملجأٌ تتجدّد فيه الروح وتصفو وتعلو. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾

فهي تحيل الهربَ سعيًا، والصمتَ تأملًا، والبعدَ قربًا من الخالق.

ومع ذلـك، فبـالرغم من الملاذ الـذي تمنحـه العزلـة الاختيـاريـة، يبقى الإنســان كائنًا اجتماعيًّا بطبيعته، يلتقي نفوسًـا تؤثّر فيه وأخرى ينفر منها، عن وعي أو بغيره. وجوهٌ تجذبه وأخرى تبعده، كلماتٌ تدفئ قلبه وأخرى تجرحه. وليس الأمر مجرّد توافقٍ أو اختلاف رأي؛ فالإنســان يســتشــعر بالفطرة ما تضيفه أو تسلبه كلّ صحبة.

وكما وصـف الإمام ابن حزم، فإنّ التأمّل الدقيق في أحوال الناس يكشـف خصـالهم وعيوبهم، والقدرة على محبتهم أو الحذر منهم تصـبح فنًّا راقيًا.

فمنهم من يحبّه لصـــدقهم ونور قلوبهم ونقاء صـــحبتهم، تريح أرواحهم وتلهم، وتذكّر بخير النفس البشـــرية. في عيونهم، يلمح صـــدى قيمته الذاتية، وتصـير لحظات الصـمت بينهم حانية، كنسـيمٍ على شـاطئٍ هادئ. ومنهم من يفضّـــل مجانبتهم، لا بغضًـــا، بل حذرًا؛ فالنميمة والكذب والسـطحية والطمع روائحُ لا يُطيق اسـتنشـاقها دون أن يتلوّث. وكان ابن حزم يقول: إنّ العاقل يحسـن اختيار من يغذّي قلبه ويُقصـي من ينهكه، فالصُّحبة السيئة تستهلك العقل كما تستهلك الجسد.

ويتعلم الإنسـان رويدًا رويدًا أنّ كلّ صـحبة بشـرية هي مرآة؛ فمن يحبّهم يعكســون أســمى آماله، ومن يتجنّبهم يُظهرون له ضــعفه وجراحه غير الملتئمة. فتصير المعاشـرة ميدان تعليم: الابتسـامة الصـادقة بَلسـم، واللوم الجائر مرآة للصـــبر والتواضـــع، والكلمة الفارغة تذكيرٌ بأهمية الحقيقة الداخلية. وتوجد أيضًا تعقيدات المشاعر المختلطة: أن يحبّ ويتضايق، أن يعجب ويغضـب، أن يطلب ويصـدّ. ويحدث ذلك لأن الإنسـان ليس مخلوقًا ثنائيًّا؛ بل هو منســوج من تناقضــات ورغبات ونفور، وفي مواجهة الآخرين يكتشـــف عمق قلبه. النفس التي تعرف نفســـها تبدأ في تمييز

القيمة الحقيقية للإنسان عن مظاهره السطحية، وتفضّل الجوهر على المظهر. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

لذلك ينتقي المؤمن أصحابَه ببصيرة، لا يختطفه صخب الأصوات ولا بريق الدنيا، يفضّل الصدق الهادئ على المديح المزعج، والنصيحة الواعية على الثرثرة الفارغة. وفي هذا الإختيار، يجد الشجاعة نفسها التي يجدها في العزلة: أن يصون نفسه لينصرف إلى ما يغذّي الروح.

وحين يحبّ، يحبّ تمامًا، لا لحاجة التملك، بل تقديرًا لجمال الآخر، وشكرًا للنور الذي يمكن أن تشاركه روح الغير؛ وحين يُعرض، يُعرض باحترامٍ ووعي، لا تكبّرًا، بل ليمنع ظلّ إنسانٍ من أن يحجب نوره الخاص .قال العليّ الأعلى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخاللُ. »

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ فصحبة الأتقياء تغيّر الإنسان، كلامهم يلهم، وصمتهم يُطمئن، ومودّتهم تصير سندًا للقلب المبتلى. وأخيرًا، علّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم ، وتَرَاحُمِهِم ، وتعاطُفِهِمْ . مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تدَاعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى. »

فمحبة المؤمنين الصادقين والاقتراب منهم عمل عناية بالروح، لكن الحذر واجب؛ على المؤمن أن يحفظ قلبه وحدوده، فبعض العلاقات قد تفسد ما بُني في صمتٍ وتأمل. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين.» فهي ليست فقط حفظ السلم الخارجي، بل حماية القلب من المؤثرات المفسدة، والغيرة، والدسائس، والهمسات التي تفتك بالنور الداخلي.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وهكذا فإن اجتناب أصــحاب القلوب المريضــة ليس عزلةً، بل هو تمييزٌ واحترامٌ للنور الذي أودعه الله في القلب. وفي هذا الإطار، يتذوق المؤمن عُمق المودّة والمحبّة الصافية، لا من باب التعلّق السطحي أو التبعية، بل انطلاقًا من وعيٍ بأن كل علاقةٍ وديعةٌ من الله واختبارٌ في البصيرة.

وفي هذا التبصّــر في الأرواح، يدرك المؤمن أيضًــا ضــرورة وجود المربي والشيخ المرشد. فوجود رجلٍ منير القلب، مشرق بالإيمان والتجربة، يصير منارةً في بحر التأثيرات البشــرية. ومجالســة الحكيم ليســت اســتماعًا لكلماته فقط، بل تأملٌ في ســلوكه، وصــبره، واحترامه للحق، وثباته في الابتلاء. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « المرء مع من أحب. » فعليه أن يحب أهل الســنة، ويحيا على طريقتهم، ليكون أقرب إلى خير المرسلين. فمحاكاة الصالحين وسيلةٌ لتزكية النفس، وتصحيح العادات، وتعلّم لُطف الشريعة في تفاصيل الحياة.

وهذه الصحبة تُبدّل الكيان، لأن النفس بطبعها تمتصّ ما يحيط بها؛ فإذا خالطت قلب المربي انسجم نبضها مع إيقاع الإيمان، وصارت تبصر ما يُغذّيها وتحتاط مما يُفسدها. تتعلّم التوازن بين الحبّ والحِلم، واللين في المقام الذي كانت فيه لتستعجل وتغضب.

والتلميذ الصادق يدرك أن الاقتداء بالشيخ ليس خضوعًا أعمى، بل تدريبٌ على استقامة القلب واعتدال الروح. وكلّما كان أصغر سنًّا، كانت بركة الشيخ عليه أعظم، لأن الحفر التي وقع فيها شيخه لن يكررها بعده، إذ ينصحه ويقوده في طرق العلم والحياة اختصارًا ورحمة.

فالعلم الذي يورَّث عن الشيخ ليس كلماتٍ مكتوبةً ولا محفوظاتٍ مكررةً فقط، بل هو منهجُ السلوك: كيف يمشي، وكيف يتحدث، وكيف يصمت. فإذا فهم التلميذ قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكن ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»، أدرك أن «العيش مثلهم ليكون الأقرب إلى خير المرسلين» يعني فعلاً أن يقلّد شيخه إن كان تقيًّا صادقًا، لأن تقليده قربٌ من السنّة في درجته. ومع ذلك، لا ينبغي أن يقلّد الشيخ في زلّاته، فلربّما أخطأ، فيميل التلميذ إلى تبريره. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «احذروا زلّة الحكيم.» وشرح عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي هذا قائلاً: «المعنى أن يُتوقّى من زلّة العالم، فإن كثيرًا من الناس يُفتَنون بها لأن العلماء يُقتدى بهم، فلا ينبغي اتباعهم فيما أخطؤوا فيه، بل يُلتمس لهم العذر ما أمكن دون تقليدٍ في زلّة«.

فالتقليد إذًا ليس طاعةً عمياء، بل هو امتصــــاصٌ واعٍ لضـــوء الحكمة والفضـــيلة، مع تمييزٍ بين الصـــحيح والزَلَل، وبين النور الذي يُهتدى به والظلّ الذي يُتجاوز بحصافة المؤمن.

الفصل الرابع

في طبيعة الحب

الحبّ، في حقيقته الأولى، شعلةٌ تتفجّر في الصدر، واضطرابٌ يفلت من قبضة العقل ويُربك حتى القلب الأشدّ فطنة. من ذا الذي يزعم أنه لم يشعر يومًا بتلك الارتعاشة الخفية؟ لا رجل – مهما كان حكمُه أو صلابته – يستطيع الادّعاء أنه نجا منها. فالحبّ يمتلك تلك القدرة الغامضة التي تُورِث الخوفَ في نفس العابد، والجرأةَ في قلب الخجول، والكرمَ في طبع البخيل، والحيرةَ في عقل العالِم.

إنه يقلب الطبيعة كما تُقلب الريحُ الغبار. يحاول بعضهم تعريفه أو حبسه داخل الصور والمفاهيم، لكن الحبّ يسخر من حدود الألفاظ؛ يزهر حيث لا يُنتظر، ويذبل حيث يُظَنّ أنه في مأمن، ويَهجم كالعاصفة في

صفاء السماء. يمنح القلبَ قوةً جديدة، وفي اللحظة نفسها ضعفًا ما كان ليتصوّره. قال بعضهم هو علّة، وقال آخرون هو سُكر، وقال غيرهم هو نور – وكلّهم صادقون في تجربتهم.

الحبّ، غامضٌ كنسيم الصباح، يبدأ غالبًا بمزاحٍ لطيف، أو كلمةٍ عابرة، أو نظرةٍ خجولة، ثم ينمو في أعماقٍ تعجز اللغة عن وصفها. لا يفقه جوهره من لم يتذوّقه بنفسه؛ إذ لا بدّ من المرور بحرارة الانتظار، وسُكر اللِّقاء، ولوعة الفُرقة، حتى يُقال إنّ المرءَ عرف شيئًا منه. والحبّ ليس مذمومًا في الدين، ولا منهيًّا عنه في الشريعة، فقلوب العباد بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « لم يُرَ للمتحابين مثلُ النكاح. » ولقد حفلت الأخبار بأقوامٍ صالحين غلبتهم المحبة وأرهقتهم بنارها. فالحبّ لا قانون له؛ يشعل قلب العالِم، ويُبكي المتكبّر، ويهزّ القلوب من قواعدها. رأيت رجالًا استهلكهم الهوى، أضناهم السهر والأنين، لا يذكرون اسم محبوبتهم إلا احمرّت وجوههم واضطربت

أنفاسهم. ومن ظنّ أنه قادر على قهر الحبّ فقد أخطأ، فهو عاصفة تقتلع الحكمة والكبرياء معًا، تجعل الضعيف شجاعًا، والعاقل شاعرًا مسحورًا .وليس جوهره في الجمال، ولا في القرب، ولا حتى في حُسن الطبع؛ فكثيرون أحبّوا بلا سببٍ معلوم، مفتونين بما لا يدرون مصدره. وقال ابن عباس رضي الله عنهما عن شابٍّ قتلَه العشق: «ذاك قتيلُ الهوى، لا دية له ولا قِصاص.» فالحبّ — في حقيقته — ليس قصة مظاهر، إنما غرسٌ في أعماق الروح، كشجرةٍ لا يُعرف عمرها ولا سرّ وجودها.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: « اعلم أن التعلّق الشديد، والعشق إذا استولى على القلب واستحكم، لم يترك للعقل ولا للنصيحة موضعًا، وليس للعاشق دواءٌ أنفع من الجمع بالحلال بمن يحبّ، أو الصبر والدعاء. » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ فما تعارفَ منها ائتلفَ وما تناكرَ منها اختلفَ. » وقال حكيمٌ: « أرواح المؤمنين تتعارف. »

إنّ الحبّ حالةٌ تُقلب نظام الوجود؛ تُبدّل الطباع، وتغيّر العادات، وتمنح المتردد شجاعة، وتلين الغاضب، وتنتزع من يد البخيل أعزّ ما يملك. يشبه النار التي تغيّر جوهر المادة. تراه في الزوجة الوفية كما تراه في

الشـــاعر المجنون، وفي الملك كما في الخادم؛ قوته لا تســـتثني أحدًا، حتى الأتقى. وقال شاعرٌ:

كنـتُ حصـنًـا، والقلـب مســـتورُ، فشـــقَّ الحـبُّ في الجـدار عبورُ.
ظـنـنـتُ الـهـوى حيلـةَ الضــعفـاء، فرأيـتُ الـقـوةَ فـي قـيـوده تـدورُ

*****

هكـذا هو الحبّ: يهرب منه البعض، ويفتخر به البعض، لكن لا أحد ينجو من مذاقه، فهو سُنّةٌ ماضية في سرائر الأرواح. وأحيانًا، يغدو الحذر بين العاشـقين سـببًا للوجع؛ يتوجّسـون من بعضـهم البعض، يظنون بكلّ كلمة شرًّا، ويفسّرون الإيماءات خطأ — فتثور الشكوك ويشتدُّ الافتراق. عرفت امرأةً كانت مثلاً في الحِلم وسـعة الصـدر، لكنها أمام من تُحبّ، كانت انفجارًا من المشـاعر المتناقضـة، تُغذّي ظنونها من كلّ بادرةٍ بُعدٍ أو سكوت.

قال شاعر: « أرتاب في أصغر الأمور إذا كنتَ أنت صانعها، فمن بذور العلل العظيمة تولد أسباب صغيرة، ومن أصغر نواة ينبت شجرٌ عظيم. »
وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « خيرُكُم خيرُكم لِأَهْلِهِ. »

فالمحبّة الصادقة لا تُبنى على الشكوك، بل على ثقةٍ صامتةٍ وعميقة، تتجلّى في العناية الحانية بالطرف الآخر، وفي حفظ تفاصيل أفعاله وكلماته ورغباته. فالعاشق الحقّ يلحظ كل ما من شأنه أن يُسَرّي قلب محبوبه، دون الانجراف وراء أوهام الغيرة المدمّرة. يتبع خطاه كما تتبع الظلّ الجسد في وضح النهار، في أدبٍ ولطفٍ. وأولى بوادر الحبّ قد تأتي خفيةً، كتحوّل داخلي شبه غير محسوس؛ يتسلل إلى الروح عبر طول التأمل، وتكرار التفكير، حتى يشتعل القلب بالهوى ولا يعود يجد راحة. الحبّ قوّةٌ غامضة تجعل العين تثبت، والكلام يلين، وكل صمت يتحوّل إلى تواطؤٍ لطيف.

أيها القارئ، اعرف في نفسك هذه العاطفة المتواضعة، ولا تصدّها بقسوة ولا بكبر. فكل نفسٍ عاشقة هي عالم قائم، وكل حبٍّ متاهةٌ تتشابك فيها البهجة مع الألم، والرجاء مع الخوف.

رافِق هذه الرحلة بحكمة وصبرٍ وبصيرة، إذ لا يحتفي بجمال الارتباط في ضــوء الإيمان إلا من أحســن المراقبة دون ضــياع. فهي ميلٌ طبيعي، واختيارٌ حرّ صادق؛ فما من قلبٍ أصابته شعلة الإخلاص إلا صار الميل عنده تلقائيًّا، مقرونًا باليقين العميق الذي يتجاوز الظواهر.

فمن كان صــديقُه قصــير العنق، لن يرى يومًا الجمال في عنقٍ طويل، إذ نفســه متعلقة بصــورته الأولى التي توافق عالمه الباطن. ومن أحبّ أَمَةً قصيرة القامة، ظلّ يفضل تلك الصورة أبدًا، ولو غاب عنه جمال القدود الطوال. وهذه الميول ليست حكرًا على البسطاء أو الجُهّال، بل تصيب العقول الراجحة أيضًا. وأنا نفسي، في شبابي، أحببتُ أمةً شقراء، فلم يعد قلبي يميل إلى الســواد في الشــعر، حتى لو توّج وجهًا يســطع كالشـمس. وهذا الميل متجذّر في سرائر المحب، قد يُورَّث، وقد يُغرس في النفس كسـرٍّ مألوف. وكان أبي، رحمه الله، ذا الميول نفســها طوال حياته، ورأيتها أيضًا عند عظماء آخرين، بل بين كبار أبناء الناصر، ذوي الشعر والعينين الفاتحين، كأن حبّ ذلك كان ميراثًا بينهم.

ولكن الأعجب هو انقلاب القلب فجأة حين يســيطر عليه الحب، فينصرف عن ميوله الأولى تمامًا إلى أهواء جديدة غير متوقعة. وهذه الحال

التي قد يُتحسّر عليها أو تُقبَل، تمحو الطبيعة الأولى وتُحِلّ محلها طبيعة ثانية تصير كالطبع الأصيل. وهنا يظهر سلطان الحبّ: ليس اختيارًا منطقيًّا ولا حسابًا، بل اندفاعٌ وسطوةٌ لينة، تهدم النظام القديم، وتضع سترًا جديدًا على الروح.

لكن الحبّ الحقّ لا يعيش مع ازدواج القلب؛ فالمحبّ الصادق لمن اختاره، يفقد السيطرة على نفسه حتى لا يسكن قلبه إلا حبٌّ واحدٌ كامل. ومن زعم القدرة على حبّ شخصين معًا في جوهرهما، فهو في كهف الوهم والمجاز، إذ القلب — كالعقل — لا ينقسم. لذلك، يقرّ المفكّر والشاعر، في بحثهما عن حقيقة العشق، أن النفس مكوَّنة من نسجٍ معقّد، وكل حبٍّ فيها قطعة فريدة لا تُوافق أخرى. وهذه المعرفة العميقة بطبيعة الحبّ هي المفتاح لتجنّب الخطأ، ولغرس الصدق الذي يفتح أبواب السعادة الحقيقية. ومع ذلك، فليست كلّ المحبات شريفة ولا هادئة. فقد كان سعيد بن منذر، الإمام الورع في جامع قرطبة، شديد الحب لجاريته الشابة، فبذل جهدًا في تحريرها وعرض عليها الزواج، لكنه جوبه بالرفض حين سخرت من طول لحيته.

فوضع أمام نفسه تحدّيًا؛ شعره الطويل الذي كان سمتًا لحكمته، قصّه، وأتمّ تحريرها، ثم عرض الزواج مرة أخرى، فكان الجواب رفضًا قاطعًا. حتى تدخل أخوه، حكم بن المنذر، ونال منها ما أراد. فجرح سعيد في قلبه وكرامته. لكن العواطف تبقى قوى لا يمكن التنبؤ بها ولا فهم مسارها، فقد يجد رجل قوته في الخضوع اللطيف أمام محبوبته، يخفض كبرياءه ليحفظ الوصل، بينما يبقى آخر أكثر اعتدادًا بنفسه، محافظًا على عزلته القلبية، متحمّلًا ألم الغياب صامتًا. تلك هي مفارقة الحبّ: يُذلّ ويملك، يُقيّد ويحرّر، في الوقت ذاته. وقد تغنّى شعراء الأندلس بهذه المسالك الوجدانية، حيث تتعاقب البهجة والعناء، ويشرق البصر بالنجوم ثم يكسوه غيم الدموع الخفية. وصفوا إيحاءات العيون، والإشارات الصامتة التي تتكلّم أبلغ من الألفاظ، والنظرات الخاطفة، والابتسامات المتواطئة، كلُّها لغاتٌ سرّية تصنع خطاب القلوب في صمت. وعرفتُ شابًّا مولهًا، كان يجد في التواصل بالمراسلة أرقى أنواع السلوى؛ يبكي على كلماته في رسائله، ويذوّب نفسه في الحروف حتى لا ينقطع الرباط مع من يحب. وكانت ردود محبوبته، حتى لو كانت مجردة، صدىً لآماله، ووعدًا بلقاء قادم.

لكن الحبّ أيضًا يحمل أمراضه: العمى، والغيرة، وسوء الظن، والبهتان. فعلى العاشق أن يحافظ على الحكمة والصبر، فالقلب هشّ، والمزالق كثيرة. وأن يفرّق بين الصداقة الصادقة والنفاق، وبين الحقّ والوهم، وبين الوفاء والجحود. فالخلافة الحقيقية للحبّ هي أن يجتمع العقل والقلب في كيمياء متوازنة، فنٌّ عسِر الإتقان، لكنه بديع الأثر إذا تمّ.

الحميمية في الحب مسرحٌ من الإيماءات والصمت، تملؤه الإشارات الخفية التي لا يفهمها إلا الأرواح الرفيعة الحس. أذكر رجلًا كان في عينيه لهيب مكتوم، نار داخلية لا يطفئها شيء، ومع ذلك كان بالغ الكتمان، يعلم أن المبالغة في البوح تُعجِّل بالفقد. فالعفّة في الحب حصنُ العقل. وطبيعة هذا الحال أن العاشق يتقلّب بين تناقضات القلب؛ بين الشك واليقين، والظنّ والخيبة، والمشاجرات الصامتة التي تصير فيها الكلمة المفسَّرة خطأً سُمًّا. غير أن هذا التعوّد على الصمت وكبح النفس هو مفتاح البقاء. فالحب الحقيقي لا يعيش على الريبة ولا على اللوم، بل على الثقة الراسخة والفهم العميق للطرف الآخر. والغيرة في أغلبها علامة قلق؛ أمّا القلب الذي سكن إلى الله فلا تحرقه أوهام التخيّل.

الحب لا يؤمر به، ولا يُقاد بحســاب أو هوى. إنما ينبت في النفس مثل بذرٍ تُغذّيه ميول فطرية مزروعة قبل وعي الإنســان نفســه. فبعض النفوس تميل بطبعها إلى ملامح أو ألوان أو صفاتٍ تشعر نحوها بانسجامٍ صامت كأنها أنغامٌ داخلية. فرُبّ رجلٍ لا تعود نفســه تُعجب بعنقٍ طويل إن كان قد أحبّ صديقًا قصير العنق؛ إذ ذاك الشكل صار عنده ميزان الحسن.

هذه الألفة تتجاوز الإرادة الواعية، تسبق التفكير والعقل. وقد عرفت أناسًا أحبّوا شـقراواتٍ في شـبابهم فبقي ميلهم ثابتًا رغم ما قدّمه لهم الواقع من جَمالٍ مخالِف، فوفاؤهم لتلك الميول البعيدة دليل صـفاء النفس المحبّة. ومع ذلك، يستطيع الحب أن يهدم أعتى الثوابت، وأن يعيد صوغ النفس بأهواء جديدة غريبة عنها، فيصــرفها عن جمالٍ مألوفٍ إلى عشــقٍ غير متوقّع. وحينئذٍ يصـير الحب اسـتبدادًا رقيقًا، يُشـكّل رغبة جديدة داخل الروح. ولهذا تخدعنا المظاهر، فكم من عقلٍ أحبّ ما كان يرفضــه منطقه. فالحبّ الصــادق يســمو على الجمال المادي ليبلغ انســجام الأرواح وتآلف العقول وتشــابك الأفكار. فمن طرق باب الروح لم يظفر بجسدٍ فحسب، بل ولج عالــمًا خفيًّا، مزيجًا من نورٍ وظلمة، من رجاءٍ وندم، من إنسانيةٍ وربّانية.

اتحاد الأرواح في الحب بُزوغٌ للقلب يتجاوز التملك. هي نشوة عذبة ونار لطيفة تحرق دون أن تفني. تُحدث انقلابًا داخليًا عميقًا؛ حيث يلين الصلب، وتتحوّل الكبرياء إلى رقة، والبرود إلى دفء آسر. ذلك الحال يجمع الخضوع والانتباه في آن: خضوعٌ لحُسن الآخر، وانتباهٌ إلى عالمٍ يتعطّل فيه الزمان.

أذكر رجلًا قاوم في بدايات عشقه مشاعره بحدّة، حاول ترويض الجموح، لكنه استسلم أخيرًا، فانقادت نفسه التي كانت متعاليةٌ إلى رِقّة العشق وتواضع الحبّ. ومع ذلك، لم تذُب هويّته، بل تهذّبت وارتقت، فصار أرهفَ حسًا وأصدقَ نظرًا في جمال الحياة. الحب الحقّ يحتاج إلى صبرٍ على عواصف النفس، فإدارةُ الغيرة بالحكمة واجبة، لأن الشكّ البالغ يُقوّض حصون المحبة. أما الريبة إذا لم يُضبَط حدُّها صارت سُمًّا خفيًّا ينخر الثقة حتى تنكسر أمتن الروابط. فالعاشق الحكيم يدرك في نظرةٍ رقيقةٍ، أو في كلمةٍ مقتضبةٍ، أو في صمتٍ مُحمّلٍ بالوعود، اللغةَ الحقيقية للحب، التي لا يفهمها إلا القلب الطاهر والعقل المهذّب بالتجارب والصبر.

وقد تغنّى شعراء الأندلس بآلام الصمت، وعذابات العاشق المتستّر؛ ذاك الذي يبتسم أمام الناس ويذرف دمعه في الخفاء، يخفي قلبه عن العيون ليحفظه كنزًا لا يُمسّ، ويرى في الانتظار الطويل نعمةً مقدّسةً وامتحانًا للصدق. فوصفوا الاستسلام المضيء للقدر، وعذوبة الشوق الهادئ، وحكمة الرغبة المؤجلة. ومع كل هذا الصراع الباطني، يظلّ في الحب نعمة متفرّدة، ضياءٌ يُبدّد عتمة الطريق، ويصالح النفس مع ذاتها ومع الله.

الحب في جوهره الأطهر نارٌ مقدّسةٌ تلهب القلب والروح، تتجاوز الإعجاب بالأشكال أو فتنة الجسد، هي كيمياء دقيقة توحّد الأرواح قبل الأبدان، ورابطة تتخطّى الحروف والهيئات. في هذا الاتحاد يصير العاشق ظلًّا لحبيبه، ينساق معه دون أن يفقد إيقاع قلبه. ينقاد لصوته، لنظره، لحركته، ويعيش على بريق وجوده كما تُنبت الشمس الحياة على الأرض. كلّ نظرة وعدٌ، وكلّ صمتٍ عهد. يذوب الزمن أمام يقين هذا الاتصال الخفيّ الذي لا يُكسر. ويعرف العاشق آلام الشكّ والغيرة والانتظار الذي يلتهم الليالي، لكنه يدرك أن الصبر مفتاحُ السعادة الدائمة، وأن الثقة قيودها أخفّ من سلاسل الظنون. في لذّة الشعور وألمه يكتشف إنسانيته وخضوعه.

والتباعد في دهاليز العشق رقصةٌ دقيقة بين الحضور والغياب، بين البوح والكتمان. فهو مزيجٌ من خوفٍ من العيون الخارجية ومن نداءٍ صامتٍ داخل القلب. فأول ألوان التباعد ذلك الذي يكون بوجود رقيبٍ أو شاهِد، حيث يغدو حضور الغير حاجزًا دون تبادل الأرواح. فالمحبوبة تتنحّى، تتحدث بخفوتٍ إلى غيره، وتخفي أفكارها في رموزٍ مبطّنة، بينما يبدو العاشق مبتعدًا وهو في الحقيقة مشدودٌ إليها أشدّ. هذا التراجع الظاهر يخفي مجاذبةً روحيةً لا يراها إلا البصير، نظراتٌ هاربة، وكلماتٌ تصمت وهي تصرخ في الداخل.

ومن يدرك البواطن يرى في ذلك رقص القلوب المتشوقة الهاربة، مشهدًا مهيبًا ومؤلمًا في وقتٍ واحد.

وفنّ هذا التباعد لا يخلو من مهابةٍ ورقّة؛ يحتاج إلى صبرٍ ولينٍ وضبطٍ للصمت وإرادة تُقاوم تيارات الشكّ، فكل غيابٍ قد يُفهم رفضًا، وكلّ انقطاعٍ يصبح ثِقلًا على النفس. إنه يشبه ماء بحيرةٍ تعكس نور السماء؛ تُرى ساكنة فيما تحتها تياراتٌ خفية. وفي هذا الابتعاد يتجلّى الحبّ في حضورٍ مؤجَّل، في عهدٍ صامتٍ لا يُفصح عنه إلا السكون.

العاقل يدرك أن بعض الغيابات دليل حبٍّ لا يقلّ صـــدقًا عن اللقاءات، وأن لحظات الفراق الطويلة تنســـج أعمق الروابط. فالتروّي في البوح، والاختفـاء في الظلال، ليس دائمًـا جبنًـا بـل فنًّـا من فنون الهوى، يُعلّم القلب أن ينتظر بنَفَس الحبيب، ويمضي في إيقاع روحه.

تتوارى بهجة قلبي أمام غياب الحبيب، ويختبئ ابتســـامي في ظلّ فُقدٍ جميل.

وهكذا، فإن هذا الانســحاب، وإن كان يُشـعر بالمرارة، يمكن أن يكون مصدر توترٍ شغوف، يرسّخ توازنًا هشًّا بين ألم الفُرقة ووعد اللقاء القادم.

فالوفاء أحد أسمى وأجمل أركان الحبّ الحقيقي، يعكس أصل الإنسان النقي، ويبيّن معدن قلبه وعظمة نفســه. أن تكون وفيًّا هو أن تجيب الوفاء بالوفاء، واجبٌ يربط العاشق والمعشوق في علاقة قوامها التوازن والاحترام المتبادل. وهذا المبدأ الكوني مرآةٌ للطبيعة ذاتها؛ فما في الخلق شـــيءٌ يخرج عن طبيعتـه: لا يثمر الـدفلى عنبًـا، ولا تجمع النحـل مرارةً في عسلها. وأول صور الوفاء هي البسيطة الأساسية: أن تفي لمن وفى لك، وتحفظ الثقة التي أُودعت عندك. الانحراف عن هذه القاعدة هو فقدان الكرامة، ومن يخون لا ينتمي لسلالة القلوب النبيلة. وهذا الواجب أوجب

على العاشــق، لأنه هو من اختار، بشــغف مودّته، أن يضــع روحه على المحك؛ هو من بادر إلى القرب، وربط الأواصر بسعيه.

لكن الوفاء لا يقف هنا؛ فحتى إذا خانه محبوبه، يبقى عليه واجبٌ نبيل: الصبر والمسامحة. ألّا يردّ الإساءة بالإساءة، وأن يؤخّر القطيعة ما دام في النفس أمل، وأن يفتح أبواب العودة ما أمكن، تلك هي علامات الوفاء الأعظم. الحكيم يحفظ في قلبه الخير القديم، ويُقصــي مرارة الخيانة، ويُبدي قوةً نفسـية تتجاوز عدل اللحظة ومحاكمتها. وإذا كان الانفصال حتميًّا، فإن الوفاء يقتضــي أن يبقى القلب نقيًّا من أحقادٍ مفرطة، لأن الكراهية والانتقام يزيدان الألم، ويغلقان باب الصــلح. الوفاء الحقيقي قادر على تحمّل البُعد، والبكاء في صــمت، وحفظ صــفاء الذكريات. والعلاقات الوفية تُعرف بالصـمت الحصـيف، والحذر في القول والعمل؛ إخفاء العيوب، وإظهار المحاســن، وتحمّل النقائص، هو شــرفٌ تجاه الآخر. ويجب أن يُعلَم أن النفس البشــرية لها تقلبات، وبعضــنا ســريع الغضــب، أو عرضــةٌ للنسـيان وعدم الثبات. لذا يجب أن تُدار العلاقات بحكمة، وأن يقبل المرء هشــاشــة الروابط، وألّا يهدر قوّته في ملاحقة المسـتحيل. الوفاء هو هذا الخيط الخفي الذي يشـبك القلوب ولو فرّقتها

المهالك: غيابٌ، أو مســـافة، أو موت. إنه كنز لا يُســـرَق، وعهدٌ موثّق بالصمت والأبدية.

العاشــق الوفي يواصــل الحب بلا شــرط، ويغفر بلا ضــعف، ويؤمن بلا دليل؛ لأن حبه مغروس في النور الإلهي الذي يتجاوز المرئي. فالوفاء عنده ليس عبئًا، بل مصــدر ســرورٍ عميق ينير طريق العاطفة الشــاقة. قال رســـول الله صـــلى الله عليه وآله وســـلم: « مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم ، وتَرَاحُمِهم ، وتعاطُفِهِمْ . مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تدَاعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى. »

أما الخيانة، فهي من أبشــع الصــفات التي تدنس الحبّ والروح، فالوفاء يكشـــف النبل ويُعلي مكانة القلب، لكن الخيانة تفضــح، وتهدم الثقة، وتكســر الرباط المقدّس بين روحين. وهناك أمرٌ مهم: الخيانة الحقيقية لا تصـــدر إلا ممّن بدأها أولًا. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَـــبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَـلُ الظَّـالِمُونَ إِنَّمَـا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْـــخَصُ فِيـهِ الْأَبْصَـــارُ﴾ وقـال أيضًـا: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ والخيانة بالخيانة، وإن تشـــابهت في الفعل، ليســـت مســـاويةً في الإثم؛ فالقرآن يأمر أن تكون المعاقبة عادلة غير متجاوزة.

وفي الحب غالبًا ما تأتي الخيانة من أقرب الناس، ممن يودَع لديهم أغلى الثقات، فكل خرق لهذه الثقة جرحٌ عميق، وإهانةٌ شديدة تكشف سوء جوهر فاعلها. الخيانة هي نقض الولاء، وكسر العهد، وتخلّي عن الحقوق المقرّرة.

ويمكن أن تظهر الخيانة بطرق متعددة، بعضها خفيٌّ وخبيث؛ أشدها ألمًا استخدام الوسائط، أي المراسيل التي تحمل الأسرار والعهود، فإذا انحرف هؤلاء الوسطاء عن دورهم الشريف وخانوا مَن يخدمون، كانوا صانعي خرابٍ مزدوج: هدموا رابطة المحبين، وخرّبوا أرواحهم، لأن خيانة الأمانة جريمة عظيمة. الخيانة تتسلل إلى القلب كسُمٍّ بطيء، فتقوض الثقة التي هي أساس كل حب صحيح، وجرحها أعمق إذا صدر عن أقرب القلوب. وهي تتطلب من العاشق قوة نفسية نادرة، فالشجاعة في الحب ليست فقط في الظفر بالقلوب، بل في الوفاء الدائم رغم المحن، وفي القدرة على الصفح والمضي رغم الظلم. القلب المخدوع لا يعيش دون تلك العظمة التي تتجاوز الانتقام، فالعفو وضبط النفس وانتظار العودة الممكنة هي طرق العاشق الشريف. ومن يسمح للغلّ أو الانتقام بالتحكم فيه يحكم على نفسه بمرارةٍ أبدية.

والخيانة قد تكون أيضًا بإهمال الوعود، أو ترك الالتزامات، أو التخلّي العمدي عن الروابط. وهناك خياناتٌ صامتة، لا تُعلن، لكنها تندس في الحياة اليومية بالإهمال، والصمت الثقيل، والبرود المستمر؛ وهذه كالأفعال العنيفة تؤذي القلب ببطء حتى تهدم العلاقة. أمام الخيانة، الألم غالبًا لا يُوصف؛ فجوة تفصل بين ماضٍ كان عامرًا بالثقة وواقعٍ يملؤه الخذلان. ويصعب العثور على نور السعادة المفقود. لكن في هذه العتمة قد تتشكّل الحكمة والعمق والمعنى الحقيقي للحب؛ فمَن ذاق الخيانة عرف قيمة الوفاء والصبر.

وتجربة الفُرقة، غالبًا نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للخيانة، هي من أَمَرّ الامتحانات للعاشق. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « عَجِبْتُ لأمرِ المؤمنِ ، إنَّ أمرَهُ كُلَّهُ خيرٌ ، إن أصابَهُ ما يحبُّ حمدَ اللَّهَ وَكانَ لَهُ خيرٌ ، وإن أصابَهُ ما يَكْرَهُ فصبرَ كانَ لَهُ خيرٌ ، وليسَ كلُّ أحدٍ أمرُهُ كلُّهُ خيرٌ إلَّا المؤمنُ » الفُرقة تولّد ألمًا ممتزجًا بفراغ الغياب، وصوتًا مكتومًا يختلط فيه الندم والشوق والأمل الغامض، هي كماصة روحية تشد الصدر، وألمٌ يتجدد مع الذكرى والانتظار. لكنها، كسائر الابتلاءات، تمنح التحوّل

وربما الصلابة؛ فالعاشق الذي يتجاوزها ينال سلامًا داخليًّا ومعرفةً أعمق بنفسه وبشريكه وبزوال الدنيا، ويتعلم أن الحب الصادق فوق الملكية واللحظة، وأنه جزء من نظام أوسع، يفتح فيه القلب باب الصبر والإيمان.

في هذا السفر العسير تصبح اللغة فقيرة عن وصف عُمق الحزن. ومع ذلك، حاول الشعراء والحكماء أن يرسموا حدوده بالكلمة والاستعارة، داعين إلى التأمل والعزاء. فيصير الذكرى عِرقًا من نور يشق ليل الغياب، ووعدًا بيومٍ يتنفس فيه القلب من جديد — رغم كل شيء — لأجل الأمل.

والرضا الذي يبلغه العاشق المحروم من الوصال هو ملجأ رفيع للنفس المعذبة، وله درجات متعددة، أولها الزيارة العابرة — منحة نادرة يهبها القدر ولو غلّفتها الحرج والحياء. وقد تكون زيارةَ العاشق لمعشوقه، حيث كل لحظةٍ تُحسب نَفَسًا من الرجاء، وقد تكون زيارةَ المحبوبة لمحبّها، وهي عادةً أقل حريةً وتعبيرًا، لا تتجاوز الأحاديث السطحية عن أحوال الدنيا. في مثل هذا اللقاء القصير، تكون النظرات والكلمات والابتسامات الخافتة دواءً للقلب، ونَفَسًا دافئًا في برد الفراق.

وهذا الرضا الضئيل أقرب إلى التعزية منه إلى الاكتمال، لكنه ثمين لأنه يُغذّي الأمل النائم في القلب. فالعاشق الذي يكتفي بتحيةٍ أو كلمةٍ

بسيطةٍ يُستعاد بها التواصل، يجد في ذلك قوةً جديدة، راضيًا حتى بالوعد غير المنجز إن حفظ شرارة الشوق. وبعد الزيارات، قد يجد العاشق سلواه في آثارٍ مادية تركها الحبيب: قطعة ثوبٍ تفوح بعطره، خصلة شعرٍ محفوظة، أو أشياء يسيرة لكنها مشحونة بمعانٍ عظيمة. هذه الذخائر المتواضعة تصير نوافذ نحو المحبوب، ورفقاء أوفياء في أوقات الوحدة والبعد.

أما الرؤيا في المنام فهي من أعجب أبواب العزاء. ففي سكينة النوم، إذ تتحرر النفس من قيود الجسد، قد تلقى روحُ العاشق محبوبَه، فتتنسم رُوح الوصل الروحي الذي يتجاوز عالم الحِسّ. وهذه اللقاءات الغيبية تُطفئ قسوة الفُراق، وتُغذّي الأمل، وتروي الروح بخشوعٍ عجيب. وهذا الرضا، برغم مظهره الضعيف، لا يُحتقر، فهو دليل على قوة حبٍّ يسكنه الصبر والرضا. يُعلّم أن الحب الحق لا يُقاس بكمال اللقاء، بل بقدرة النفس على القَبول بما يهبه القدر وإن كان في أضيق صُوره. ومع ذلك ينبغي الحذر، فهناك رضا مذموم هو رضا النفوس الهابطة التي تُبرر الذلّ وتتنازل عن الكرامة، وهو انحدارٌ يُجرّد الحبَّ من شرفه. أمّا الرضا الحقيقي فهو توازن دقيق بين أملٍ عاقلٍ وتسليمٍ رفيع، بين قبولٍ رحيمٍ

واعتبارٍ حكيم، هو فنٌّ للقلب يعلّمه كيف يتذوق النور في أعتى ظلمات الغياب .والعزاء في مسـيرة الحبّ ضـرورةٌ حتمية، لأن كل ما وُلد تحت السماء مصيره إلى الفناء، إلا ما اتصل بنعيم الخلود أو عذاب الأبد. ففي الزمن الإنساني، لا ينتهي الحبّ إلا بأحد طريقين: الموت — وهو الفراق المطلق — أو العزاء، أي السكون الروحي أمام البعد والحرمان.

وبعض النفوس تمتنع عن اللذات، لا عن ضـعف بل عن نزوعٍ روحيٍ عالٍ، وبعضها يتراجع عن طلب الوصل خوفًا من جراحٍ قديمةٍ أو خياناتٍ دفينة. في هذه الأحوال، يكون العزاء صـلابةً للنفس ودرعًا يحميها من رجع آلامها. غير أن ثمة عزاءً مذمومًا، يولد من اسـتسـلامٍ طويل، ومن انطفاءٍ بطيء، ومن انكسارٍ خفيٍّ يغرق القلب في اليأس ويشلّ اندفاعه. وهو رضـا متعب، يطفئ الأمل رويدًا دون أن يُعيد للحياة بريقها. إنه اسـتسـلامٌ أقرب إلى النسـيان منه إلى القَبول. ويُفرَّق في ذلك بين العزاء الطبيعي الذي يحرّر القلب حقًا من التعلق، وبين العزاء الإرادي القائم على الصبر الواعي الذي يرفض أن يدع الأحزان تلتهم الحب.

فمن يصبر لا يُنكر قوةَ حبه؛ يحمل وجده بتواضع، ويتحمّل طعنة الفُرقة، ويرتقي بنفسه بثباتٍ وجَلَد. وفي هذا الموقف تكون العفّة زينة السلوك،

تحثّ على إخفاء الشعور، ووضع ستارٍ على الجراح، دون قسوةٍ أو استعجال. فطريق العاشق الوفي هو طريق الصمت الواقي، وضبط النفس، واحترام حدود الله التي تُعلي الكرامة في زمن الامتحان.

وقد تكون أسباب هذا الرضا متعدّدة؛ فالشبع مثلًا يُولّد حرارة الحب ويجرّ إلى النسيان، والرغبة في التغيير — وهي صفة بعض النفوس — تُهدّد الوفاء، والحياء قد يكبح النار لكنه يمنعها من التعبير فيحكم على القلب بالذبول. ومن جهة المحبوب، يكون البُعد على هيئة تجنُّبٍ غير معلن، فإذا طال صار باعثًا للمحب على التماس العزاء في الصبر، حتى تغدو الغيبة احتمالًا يُحتَمل بشرف. وهذا الصبر محمود لأنه يحافظ على بصيص رجاء العودة .أما النفور والفتور العميق أو الخيانة فمبرّراتٌ تبيح الانفصال الكامل، وتقطع كل التزامٍ بالوفاء. فالحب الصادق لا يعيش دون إخلاصٍ وثبات، فإذا فُقدا بطلت العشرة وفقدت النفس حق الأسر في علاقة بلا كرامة.

وآخر أسباب العزاء هو اليأس التام؛ سواء أتى من الموت أو فُرقةٍ نهائية أو مصيبةٍ جليلة، وهذا اليأس كثيرًا ما يطفئ نار القلب بإخمادٍ أليمٍ حاسم.

وفي هذا المشـــهد المعقد تتأرجح النفس بين وفاءٍ مشــبوبٍ وكِبرٍ جريح، بين صـــبرٍ باســـلٍ وألمٍ مُفتت. وكثيرًا ما يجتمع هذان في قلبٍ واحد، فيتناوب فيه البقاء على العهد والرغبة في الهروب. وهناك يكمن ســـمو الوفاء أو ســقوطه .ورغم تقلب العاطفة، فإن المحبَّ الحق هو من يحفظ نقاء وُده وســـط الأشـــواك، قادرٌ على احتمال الغياب، واســـتقبال الألم، محتفظًا في أعماقه بأملٍ مُقدّسٍ ونورٍ ثابت. قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وسلم: «الصبر ضياء»، وقال أيضًا: «ما أُعطي عبد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر«.

فالعزاء في ميدان الحبّ حقيقةٌ عظيمة توافق فطرة الدنيا الفانية، فكل ما يُحبّ يخضـــع لتقلّب الزمان وتوالِي الأقدار، ولا ينجو من ذلك إلا نعيم الخلود الذي شـــاءه الله. قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ســوى ذلك، فكل شـعورٍ ينتهي، إمّا بالموت — خاتمة الفُرقة — أو بعزاءٍ روحي يُقيم السكينة ويُجدّد السلام.

وتظهر في النفس البشـــرية مقاوماتٌ وســـلوكياتٌ لا تُدرك بالعقل وحده؛ فبعض النفوس ترفض متاع الدنيا طاعةً لنواميسَ روحيةٍ عالية، وبعضـــها

يسلك طريق الزهد مظهرًا أو رياءً. كما أن من القلوب ما ينأى عن الحب اتقاءً للخيانة، ومنها ما يُسلِّم نفسه للنسيان ضعفًا أو تسليمًا للمقادير.

فالاختلاف في قوة العزاء وصفائه مرهون بهذه الطبائع. فالعزاء الطبيعي — أي النسيان — هو تحرّر القلب من انشغالٍ آلَمَه، كأنه لم يعرف الحب قط، لكنه مذموم إن نشأ من البطر أو حب التبدّل. أما العزاء الإرادي، المسمّى الصبر الجميل، فهو دليلُ شجاعةٍ وسُمُوّ النفس التي تتحمّل الأوجاع وتقبل البلاء وتواصل الحب رغم المعاناة. صاحب هذا العزاء لا يُنكر وجع الفُرقة، بل يحمله بشرف، ذاكرًا اللحظات الجميلة بخشوعٍ ورفق، لا يتلفّظ بإساءة، ولا يعرف الحقد، بل يعيش متوازنًا بين الذكرى والإيمان والرجاء.

الحياء مرتبط بهذه الحالة ارتباطًا وثيقًا، فهو يأمر بألّا تُكشَف الجراح، وألّا يُرفَع الغطاء عن الآلام الخفية، وبأن تُصان صورة المحبوب من كل ما قد يشوّهها. الحياء خُلقٌ مقدّس، يُعدّ جزءًا من الإيمان، يوجّه السلوك عند الشدائد. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصبر ضياء»، وقال كذلك: «الإيمان بضعٌ وستون أو بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.»

فهو السور الذي يمنع الانفجار في ساعة الانفعال، ويحفظ الكرامة حين العُسر. ويجب التفرقة بين أسباب هذا العزاء؛ فبعضها نابعٌ من العاشق، كالتخمة والملل والحياء المفرط، وهي قد تفضي إلى نسيانٍ مذموم إذا أدّت إلى تقاعسٍ آثم. وأمّا الأسباب التي تصدر من المحبوب، كالبعد الطويل، والنفور، والبرود الفاتر أو الخيانة، فهي تبرّر تمامًا وعي الفقد والاستسلام للعزاء بلا إثم. وأخيرًا، اليأس الكامل، سواء جاء بالموت أو بفُرقةٍ لا أمل فيها أو بمصيبةٍ فادحة، هو أيضًا سببٌ لانطفاء التعلّق، مفروضٌ على الروح بوصفه امتحانها الأخير. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « ما يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِن نَصَبٍ ولَا وصَبٍ، ولَا هَمٍّ ولَا حُزْنٍ ولَا أذًى ولَا غَمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا مِن خَطَايَاهُ. » فهي مرحلة نهائية، عبورٌ يواجه فيه القلب الفقد الكامل، ليجد ضوء الإيمان والرجاء فيما وراء الألم. وفي هذه الرحلة، يتأرجح العاشق بين وفاءٍ متشبّثٍ وعزّةٍ موجعة، بين صبرٍ بطوليٍّ ويأسٍ عاجز. وهذه المعاناة تكشف عمق النفس البشرية وصراعها بين العقل والهوى والكرامة.

الموت، في ميدان الحب، يكون كثيرًا نهايةَ ألمٍ يفوق طاقة البشر، فحين تكون الروح في منتهى الرهافة، قد تدفعها مكابدات الهوى والبعد إلى أقصى حدود اليأس، حتى يضعف الجسد وينهار، فيفقد العالم روحًا كانت موقدًا للحبّ والحسرة معًا. العلاقة بين نار الشغف وذبول الجسد معلومة لدى العارفين بالنفوس، فشدة الحب غير المتبادل، أو طول الانفصال، أو قسوة الهجر، قد تقتل الجسد كما يقتل الحزنُ زهرةً في مهدها. وهذا الفناء لا ينبع من داء الجسد، بل من يأسٍ روحيٍّ عميق، من وجع النفس الذي لا علاجَ له في ظاهر الحياة. قال الله تعالى:
﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

فإذا اشتعل العاشق بنارٍ لا تُفتر، تهاوت صحته وتلاشت قوته، وقد يموت لا بمرضٍ عضوي، بل بقلبٍ متصدّعٍ من الشوق والحرمان. وهذا المرض العشقيّ داءٌ خفيّ لا يُبصره الناس، ولا يصفه الأطباء، لكنه معلوم تمامًا لمن تتآكله ناره في السرّ. وأعظم محن الحب أن يرى المحبّ محبوبَه مُصرًّا على صدّه، غافلًا عن نداءاته الصامتة، متحصّنًا وراء جدرانٍ لا تُرى. فذلك الصدّ يُولّد ألمًا أشدّ من الموت نفسه، ويحوّل الوفاء إلى مزيجٍ من رجاءٍ متعبٍ وصبرٍ لا حدّ له وتضحيةٍ خفيّة. قال الله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ والموت نفسه قد يصبح سبيلَ لقاءٍ روحي في جنّات الخلد، فالفُرقة المطلقة هناك تتحوّل إلى اتحادٍ أكمل في الآخرة. قال الله جل ثناؤه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

وهذه النظرة، وإن حملت الأسى، تبقى عزاءً صادقًا للعاشق المخلص الذي يترقّب أن يتجاوز حبّه حدود الزمان والمكان. فالأرواح العظيمة التي ظلت ثابتة في الإيمان والوفاء، رغم الجراح، تعلّمنا معنى السمو الإنساني، ذاك السموّ الذي لا يُقاس بانتصارٍ على الألم، بل بالقدرة على الحبّ، والتجلّد، والثبات بإدراكٍ عميق بأنّ عدل الخالق مُحيط بكل شيء.

الفصل الخامس

في الشجاعة والضعف الباطني

كما ذكرتُ سابقًا، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

والشجاعة لا تُقاس بالقوة الجسدية ولا بجرأة الأفعال الظاهرة، بل تُقاس بقدرة الإنسان على ضبط نفسه، ومواجهة ضعفه الداخلي، وشهواته وغرائزه. فالبسالة الحقيقية أن يقول المرء الحقّ حين يُغريه الباطل، وأن يفي بالعهد ولو تحت الضغط، وأن يثبت على طريق الاستقامة رغم صعوبات الدنيا ومغرياتها.

وأما الضعف الباطني فليس عيبًا في ذاته، فهو جزء من الطبيعة الإنسانية.
قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾

فكل البشر تمرّ بهم لحظات شكّ، أو حزن، أو غضب، أو كسل، غير أن الضعف يصبح خطرًا حين يستسلم له المرء، أو حين تسيطر عليه الشهوة والهوى فينسى غايته ومقام روحه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.» وقال أيضًا: «ليس القوي من يغلب الناس، ولكن القوي من يغلب نفسه.»

وقال الله جلّ جلاله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فالشجاعة والضعف متكاملان: أن يعرف الإنسان ضعفه، ويتقبله بتواضع، ويجاهد نفسه بالصبر والصلاة والتفكر، تلك هي درب القوة الحقيقية.

والرجل الشجاع هو من انسجمت كلماته مع أفعاله، لأنه لا عدوّ للنفس أشدّ من وهمها بذاتها. فكل ضعف يعترف به المرء يصير سلّمًا إلى الشجاعة، وكل خوفٍ يُتغلّب عليه يقوّي القلب، وكل صبرٍ على البلاء يؤكد يقينًا أن القوة الحقّة هي خضوعٌ واعٍ لإرادة الله تعالى. فالحديث

الـــذي بـــدأ بـــه الـــبـــاب فـــي تـــمـــامـــه يـــقـــول:

»المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضـــعيف، وفي كلٍ خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز. وإن أصابك شـيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان.« فتأمل ذلك.

فالمؤمن القوي هو من اعتدل قوله وفعله، متوشّحٌ بالخشوع، نابضٌ بالأمل الدائم، كالبستانيّ الصبور الذي رغم الرياح والعواصف يواصل سقيَ زهرة الإيمان في قلبه. والصـــبر — أصـــل فضـــائل النفس القوية — هو النجم الهادي في ليل المحن، تلك القوة الصـامتة التي تسـند المؤمن عند الألم والعناء والابتلاء. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْـــبِرُوا وَصَـــابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ومن الناس من يخدعون أنفســـهم بالتظاهر بالقوة، يظهرون جرأةً في وجه المصاعب، وعدم مبالاةٍ بالألم، وثباتًا أمام المحن. لكن هؤلاء الشجعان المزوّرون يتغذّون من إعجاب الناس ومديحهم؛ شـــجاعتهم قائمة على الرغبة في الظهور، والسيطرة على الأنظار، وإخفاء خمول أرواحهم.

وقلوبهم مع ذلك هشة، لأنها لم تمتحن بالإخلاص والصبر والتواضع. فمن يتفاخر بقوته ليُبهر الناس، كثيرًا ما يكون عبدًا لمخاوفه وكبريائه. قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ فهؤلاء، في الحقيقة، ضعفاء لأن شجاعتهم مرهونة بالظروف ونظرة الناس. ومن يُقنع نفسه بالقوة عبر المظاهر لم يكن قويًّا قط، بل أسيرُ كبريائه وخوفه وخداعه لنفسه. فالشجاعة الزائفة قناعٌ من النفاق، تلمع للعيون لكنها تخدع القلوب.

هناك رجالٌ تسكن أنظارهم سكينةٌ مضيئة، ولكن في داخلهم نارُ صراعٍ لا يراها أحد. ابتساماتهم تُخفي ليالي يقظةٍ يفتّشون فيها قلوبهم، يسألون ما الذي يبعدهم عن الاستقامة. أولئك الذين لا يعرفهم الناس هم في الحقيقة شهود أصدق على الجهاد الباطني، لأنهم لا يتظاهرون ولا يطلبون جزاءً من الخلق. شجاعتهم لا تُقاس بقوة الكلام ولا بعَظَمة الفعل، بل بإصرارهم على الثبات حين يغيب الرقيب، وبحرصهم على الطهارة إذا عمّ الغفلة. يعيشون كعطرٍ خفيٍّ، لا تراه العين، لكنه يأسر من يتنفسه.

وعلى النقيض، تجد الرجل الذي صاغته اللامبالاة، يذرُّ حوله ضحكاتٍ زائلةً ولذّاتٍ عابرة، يظن نفسه حرًّا لأنه يتبع أهواءه كما يُتبع الريح. لكنه أسيرٌ لما يطمع فيه، ضيّق القلب بقدر صِغَر ما يشتهيه. وقوته الظاهرة تزول حين تهبّ رياح البلاء، إذ بنى حياته على رمال الوهم. لا يُدرك أن الحرية الحقيقية في الضبط، وأن السكينة لا تُدرك في الصخب بل في الخلوة. ثم هناك من طبيعته مزيج من الكبر والوجل، لا يزال متأرجحًا بين الإقدام والإحجام. يتقدّم حين يصفّق له الناس، ويتراجع حين يستثقله الصمت. يعيش من خلال صورته في عيون الآخرين، ناسياً أن وجه الإنسان الحقيقي لا يُرى في ضوء الخارج، بل في ظلٍّ لا يراه إلا الله. يخافون الرأي أكثر مما يخافون الحكم الإلهي، وشجاعتهم مسرحٌ لا يكتبون نصَّه، بل يؤدّونه.

وفي اختلاف طبائع البشر، نرى الخيوط نفسها التي نسجها الخالق في أصلهم: قوةٌ وضعف، كبرياءٌ ورجاء. فمن الناس من وُلد شجاعًا، كُتبت الجرأة في أنفاسه قبل أن يدرك معانيها، لا يخشى فقدًا ولا يرهب ألمًا. قلبه لا يرتجف أمام البلاء، والخطر عنده نداءٌ مألوف. بيد أن الشجاعة

إذا لم تزمّها التقوى، تصير نارًا تضيء لحظةً ثم تلتهم ما حولها. فالذي لا يخاف شيئًا لا يميّز بين الحكمة والتهوّر، ولا بين الثبات والعناد.

وآخرون يكتشفون الشجاعة كما يُكتشف النور بعد طول ظلمة. قوتهم من إيمانٍ ترسّخ في القلب خطوةً بخطوة، فكل محنةٍ عندهم حفرةٌ تقيهم السقوط مرةً أخرى. يتعلّمون الاعتدالَ بالإيمان لا بالغريزة، وشجاعتهم خاشعة أمام القضاء. هؤلاء يرفعهم الله مقامًا كريمًا، لأن بأسهم من جهاد النفس لا من طبعٍ جسور. وأشرفهم مقامًا من عرف للشجاعة حدودها؛ يعلم أن القوة أن يتراجع حين يدفعه الغرور للتقدم، وأن ينتظر حين تُغريه العجلة بالتسرع. يقيس قدر كل خطوة، لأنه يدرك أن خطوةً طائشةً في الباطل أبعد عن الحق من ألف خطوةٍ متأنية نحوه. لا يطلب الظهور بجرأته، بل يسعى لأن يكون مستقيمًا في خوفه وصادقًا في سعيه.

فالشجاعة الكاملة ليست في التهور ولا في الخوف، بل في البصيرة؛ والإيمان يجعل لصاحبه عيونًا ترى بالقلوب، فيعلم أن القوة بلا وعيٍ هلاك، وأن الخوف إذا وُجه إلى الله صار حصنًا للنفس من طغيانها. فالإنسان الكامل شجاعته ليست صرخة، بل سكونٌ مضيء باليقين.

وهناك رجالٌ نحتت الشدائد شجاعتهم ببطء، وصقلتها التجارب حتى صارت جمرًا لا يخبو بعد أن كانت نارًا تتأجج. هؤلاء لم يرثوا البطولات، ولم تشرق عليهم فجأة أنوار الإيمان، بل شادوا صلابتهم حجرًا فوق حجر، على هزائم صبروا فيها وكرامات تنازلوا عنها. شجاعتهم صافية، لا يضجُّون بها، لكنها تُشعر بالطمأنينة لمن حولهم، إذ علموا أن العظمة ليست في أن تُرى، بل أن تُعرف عند الله خفيّة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

ومن الناس من تكون شجاعته انتقائية، يجرؤ فيما يحب ويجبن عمّا يُلزمه دينه. تراه يسهر لأهوائه متحمّلاً العناء، لكنه يثقل عن الصلاة لأنها تُكلفه تضحية. فيظن نفسه قويًا، وهو ضعيف، لأن القوة التي لا تُصرف في طاعة الله ليست إلا وهماً زائفًا، ظلًّا يتلاشى حين تشرق شمس الحق. قال الإمام أبو حامد الغزالي : « العلم بلا عمل جنون، والعمل بلا علم لا يكون » وهناك أناسٌ استوطنت الضعف فيهم كضيفٍ دائم. ليست هشاشتهم قلةَ طاقة، بل ارتهانٌ للآراء، وخوفٌ من المشقة أو التجرّد. يعيشون كأن الضعف طبعهم، لكنه في الحقيقة اختيارهم للهروب.

اعتادوا الاستسلام، فصار قلبهم يضيق بأي جهدٍ، ويُسمّون تراجعهم حكمةً وفرارهم وقارًا.

أما إذا تسللت الشجاعة إلى رجل، غيّرته كليًّا؛ يتغيّر مشيه، يرسخ بصره، تتصفّى خواطره، وتستقر الطمأنينة في حركاته. يصير حاميًا لمن حوله، لا بالبطش بل بالثبات، فتسكن القلوب برفقته لأنها تشعر أنه لا ينكسر في الشدة. وهذه دِقّةٌ دقيقة: فبعضهم يتظاهر بالقوة فيُقسُو، بل يغلظ حتى على زوجته — وهيهات! فالقسوة ليست شجاعة، والسلطان بلا رحمة ضعفٌ متنكّر. من يرفع صوته خوفًا من أن لا يُسمَع، ومن يتسلّط خشية أن يُناقَش، لم يذق شيئًا من نبل القلب. فالشجاعة التي علّمها خير البشر صلى الله عليه وآله وسلم هي قوةٌ مؤدّبة بالعطف، مضبوطة بالرحمة. قال: « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. » وقال أيضًا: « لا يرحم اللّٰهُ من لا يرحم الناس. » وفي حديثٍ آخر: « من لا يَرحم لا يُرحم »

ومع ذلك ترى أقوامًا لا يفترون عن الادعاء بالسنّة، فإذا عصفت الفتنُ نسوا جوهر مَن نُصِب قدوةً لهم! قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

هؤلاء، وإن رفعوا رايات القوة، فهم أضعف الناس باطنًا، وويلٌ لهم! يعيبون الحاكم حين يحكم بالهوى، ثم إذا دُعوا إلى إقامة الشريعة على أنفسهم، وهنت عزائمهم! يلوّحون بشعارات الدين ما دامت تخدمهم، فإذا طالبتهم بالإصلاح الشخصي أسكتوها. شجاعتهم تقف حيث يبدأ عسرُ النفس، وحماستهم تخبو حين يُطلب منهم مجاهدة ذاتهم. وعظٌ للناس، وغفلةٌ عن النفس؛ يدينون غيرهم، ويلتمسون لأنفسهم الأعذار، يلفّقون حولها غلالةً من الورع.

أولئك لا يطلبون الحق، بل الغلبة الأخلاقية. يخلطون بين الدفاع عن الدين والدفاع عن الذات. وضعفهم أعظم لأنه متنكّر في ثوب القوة. يتحدثون بسلطانٍ، يقرؤون النصوص، لكن قلوبهم ترتجف حين يُؤمرون بتطبيقها. فالشجاعة ليست في القول، بل في صدق التوافق بين القلب والعمل. من ادّعى الذود عن الحق ولم يطهّر باطنه نصبَ نفسه قاضيًا حيث كان أولى أن يكون عبدًا. ولا عبدٌ مخلص يمكن أن يكون غليظًا، لأن معرفة الإله تُليّن دائمًا من يسمع بصدق.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وقال أيضًا: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

الرجل القوي حقًّا هو الذي يطبّق الشريعة أولًا على نفسه، يزن كلماته قبل أن يزن أخطاء غيره. لا يتّخذ من الشريعة درعًا يتخفّى وراءه، بل يجعلها مرآة يرى فيها شقوقَ نفسه. حين يتكلّم فليذكّر لا ليتفوّق، وحين يعمل فليقوِّم لا ليقهر. يعلم أن العدل يبدأ من الذات، فمن أراد أن يعدل مع الناس وهو غير عادل مع قلبه، وقع في نفاقٍ خفيّ. وهناك من الرجال من يريدون أن يملكوا بيوتهم كما يملك الملوكُ عروشَهم، يتسيّدون حيث كان ينبغي أن يرعَوا. يأمرون بالكِبر لا بالمحبّة، ويجهلون أن السلطة الحقيقية هي التي تمنحها الرحمةُ في القلوب لا الهيبةُ في الوجوه. فضعف الرجل لا يُعرف من دموعه، بل من ظلمه. ومن أرعب أهله باسم الحماية فقد خالف قدوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قولًا وسلوكًا.

لهؤلاء خطر القسوة المولودة من الغرور؛ أقنعهم كِبرُهم أنهم مستقيمون، فيما هم ينوءون تحت ثقل تناقضاتهم. تعلّموا الشريعة سلاحًا لا نورًا، يُحسنون الضرب ولا يحسنون الشفاء، ونسوا أن جوهر شريعة العليّ ليس

أن تُعاقب قبل أن تُهذِّب، ولا أن تُكره قبل أن تُفهِم، بل هي رحمةٌ واعتدالٌ وحكمة. من يستخدمها دون هذه الثلاثة يحفر حولها فراغًا أخلاقيًّا يكون هو أولَ من يقع فيه. أما الشجاع المهتدي فهو الذي يملك عنف اندفاعه، يعلم أن الكلمة القاسية تُنفّر قلبًا، وأن قلبًا نُفِّر خُسرت معركته. يفهم أن الرجولة في الغفران بضوابطٍ، وفي الثبات بتواضعٍ، وفي الرحمة الواعية. فما من شرفٍ أعظم من الاقتداء ولو بقدرٍ يسيرٍ بمن أرسله الله رحمةً للعالمين.

أيها القارئ، رحمك الله، تفقّد حال الضعيف الذي يمرّ به العالم فلا يراه. فليس الضعيف من قصمته المصائب فحسب، بل من ترك نفسه تذوي بلا جهاد، واستسلم لدناءةٍ روحيّةٍ توهّمها قدرًا لازمًا. وتلك أدهى من السقوط، لأنها تتزيّن بثوب العادة، وتُسمّى حكمةً أو واقعيةً. يا له من ضلال! ما خُلق الإنسان ليزحف في تراب خوفه، بل ليقف منتصبًا نحو السماء حتى لو تعثّر في كل خطوة. ومن الضعفاء لطافٌ خامدون؛ عيونهم تبحث ولا تجرؤ على الطلب، وقلوبهم تعرف الحق لكنها لا تتهيّأ للخضوع له، خوفًا من فقدان راحة التواني. يعيشون بين عالم الإيمان الذي يُعجبهم وعالم العادة الذي يأسرهم. تلهج ألسنتهم بالصبر

وتخشــى أرواحهم متطلباته. يختارون سـكون السـلامة على جهاد التكليف، وعذرهم الدائم: « لسـت إلا بشـرًا » نعم، هم بشـر، لكن الإنسان الذي يستحق الاسم هو من ينشد أكثر مما تمليه عليه طبيعته . وهناك ضعفاء آخرون ضلّوا في صخب الدنيا، خلطوا بين الحركة والحياة. يريدون كل شيء إلا تهذيب أنفسهم، متفرغون لكل لهوٍ، مشغولون عن التزكية، ينفقون طاقاتهم في التبرير والهرب من النصح. إيمانهم لا يغادرهم لكنه ينام في قلوبٍ واهنة. مسـاكين! يسـيرون إلى الله وهم يحملون أثقالًا لا يحتاجونها، ثم يتعجبون إذا عجزوا عن بلوغ الكعبة.

وطائفة أخرى ضـعفها من تضـخّم الأنانية؛ يخفون عجزهم وراء الكِبر، وضـعفهم وراء الغضـب، يسـتشـيطون عند كل كلمة حق، ويرَون في النصح طعنًا في ذواتهم. قلوبهم المنتفخة بالحساسية ترفض النقد كأن فيه إعدامًا لوجودهم. هم كمرآةٍ مكسـورةٍ لا تُظهر النور إلا مائلًا. أيها القارئ، نسـأل الله أن يهبك بصـيرةً تُدرك بها أن الغضـب عند سـماع التذكير علامةُ جرحٍ روحيٍّ لم يلتئم بعد. ولكن الضـعيف لا يهلك ما دام يعترف بضعفه وينكسر بين يدي خالقه، لأن الاعتراف بالعجز أقرب إلى الشجاعة من العُجب بالثبات الموهوم.

حين يبكي الضـــعيف في خلوة الليل، يذوق مرارة خطيئته ويســـأل ربه الغفران، يصـــبح أعظم عند الله من ألف قويٍّ امتلأ صـــدره بالغرور. أما أَخطر الضـــعفـاء فهو الـذي لا يـدرك ضـــعفـه؛ يعيش مطمئنًـا متوهّمًـا الاســـتقامة، وكل قراره يمليه الخوف. يخشـــى أن يخالف الرأي العام، فيكتم الحقّ ليحافظ على مكانته، ويظن ذلك حكمةً. هذا الضـــعيف يُســـهم من حيث لا يشـــعر في فســـاد العالم؛ فســـكوته يُمكّن الباطل من النصر. فلا حيادَ مع الحقّ، لأن كلّ صمتٍ أمام الظلم وزنٌ على الميزان، وكل جبنٍ يُنمي فوضى سيُحاسب عليها غيرُه. ومع ذلك، فهناك ضعيفٌ من نوعٍ آخر، ضـــعيفٌ يَأمل. قلبه يرتجف لكنه يتقدّم، يســـقط لكنه ينهض، يعلم أنه لا يملك صـلابة الصـحابة رضـي الله عنهم، لكنه يسـير مخلصًـا مسـتعينًا باسـم القويّ سـبحانه. هذا الضـعفُ مدرسـة، تعلّمه الافتقار والدعاء، وتغرس فيه دوام الالتجاء إلى الله.

فهو محبوبٌ عند الله، لأن ضـــعفه يذكّره بعظمة مولاه، وعجزه يقرّبه من التوكل الكـامل عليه. فـافهم، أيهـا القـارئ، الفرق بين ضـــعفٍ يُخدّر و ضعفٍ يُوقظ، فالأول يُطفئ الهمة، والثاني يفتح باب العبودية الواعية.

وليس العيب في السـقوط، بل في النسـيان بعد التنبيه. ومن يظلّ بقلبٍ خامدٍ بعد أن بُعث إليه النداء، فهو جديرٌ بالرحمة والخوف عليه معًا. نعم، المسكين هو من يعلم ولا يعمل، يسمع ولا يتغيّر، يألف المواعظ حتى تصير كالأصوات المكرورة لا توقظ شيئًا. يمشي محاطًا بالآيات، وقلبه المغبرّ لا يلتقط منها نورًا. اللهم أيقظه قبل يومٍ يقف فيه القويّ والضعيف صفًّا واحدًا، حيث لا تنفع الأعذار ولا يجدي الندم.

وأقول أيضًا: الضعف الحقّ، أيها القارئ، ليس أن ترتجف، بل أن ترفض النهوض. والشجاعة الحقيقية ليست أن تغلب العالم، بل أن تغلب ذاتك، حتى تمشي خاشعًا بين يدي الله بقلبٍ مطمئنّ، موقنٍ أن كل قوةٍ هي منه وحده، وتلك — والله — سبيل النجاة.

الفصل السادس

في الإخلاص

أيها القارئ، تأمل بعمق: لو أراد الإنســـان حقًّا إنجاز عملٍ ما، لما منعه شيء. فلو أراد حفظ القرآن كله، لوجد القوة والوقت لذلك رغم المشاق. ولو أراد أن يأتي بالقمر لمحبوبته، لانطلق بلا تردد نحو أفقه. وأما من يزعم أنه يريد بلا عملٍ، فهو في الحقيقة لا يريد. يرضـــى بوهم النيّة دون ثقل الجهد، وبصورة الالتزام التي لا جذر لها. ونستشهد هنا بكلام إمامنا الغزالي: « العلم بلا عمل جنون، والعمل بلا علم لا يكون. »

فالمرء ينتهي حتمًا إلى حيث مالت نفســه، وإن بغير شعور منه. فيصير في مكانٍ أو حالٍ أو منصـــبٍ أحبَّ في ســـره البقاء فيه، ولو كان ذلك المكان سجنًا. هذه الحقيقة برهان على أن الإخلاص ليس مجرّد إرادة أو

قول، بل هو اهتزاز الكيان كله نحو الغاية، بتوافق النية والقلب والفعل فالمرء يُساق إلى واقعٍ بما تميل إليه نفسه، وهذا الميل أعمق وأخفى مما يقرّ به. ليس السير نتيجة قرارٍ واعٍ فحسب، بل هو ثمرة محبةٍ خفية أو رهبةٍ تسبق الكلام. ولهذا، قد يعيش بعض الناس في سجونٍ لا تُرى، صنعتها ميولهم المكبوتة، وهم يرفعون شعار الحرية أو الفضيلة.

ويا للعجب أن يكتشف أحدهم عند الكِبر أنه أمضى حياته حيث أراد داخليًّا أن يبقى، وإن كان المكان وكرًا للأوهام والحسرات والأكاذيب. القول والإرادة وحدهما لا تكفيان، فإذا تجذّرت الإرادة في الزيف، لجأت الأفعال إلى البرود، وصارت صورة الالتزام خدعةً تحول العين عن الحق الذي تخشاه. مأزق هذا الإنسان أنه يطلب الرفعة بلا جهد، والنور بلا اقتحام الظلام. وواقعُه، مهما حسنت نيّته في الظاهر، غالبًا بعيد عن حلمه؛ لا الجسد يخونه، بل النفس تنأى شيئًا فشيئًا. فإذا لم تتهيّأ النفس، كان الزمن دورانًا بلا نهاية، والحياة مسرح ظلال ممتدّ .والنفس مثل ورقةٍ في مهب الريح؛ لا تطمئن بالمقاومة، ولا بالمحاربة ضدّ سيرها. فالورقة لا تعاند النسيم الذي يحملها، بل تسلم إلى مسارها، مفوِّضة أمرها لما يسوقها. كذلك الروح، لا تتضرر إلا إذا أُكرهت على ما

لا تريد، أو قاومت نداءها عنادًا أو جهلًا .فالقلب الطاهر يعرف النفَس الذي يوافق جوهره، ويميّز العصف العشوائي عن النسيم الموفِّق. وكل ما يخالف هذا التوافق، وما يفرض على النفس العنف، يزرع الألم والاضطراب والجمود.

ومن الناس من يدّعي طلب العلم، ويتحدث عن ليالٍ يقرؤها، وأيامٍ يحفظ فيها، لكن حين يفتح الكتاب، يتوه. قلبه أسير الملهيات الحديثة، يضيع في ضوضاء المنصات، باحثًا عن نماذج يراها ولا يقتدي بها. ينظر إلى السلف الصالح، فيقول: سأكون مثلهم، ولا يتجاوز فعله حروف ادّعائه .يزعم حفظ كلام الله، ولا يأخذ لذلك ساعة، ولكنه يصرّف الوقت يحدّق في شاشات فارغة، يتغذّى على صورٍ بلا روح، يبتلع بريقًا بلا مضمون. قلبه فارغ. قال اللّه تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ هؤلاء كمسافرين ركبوا سفينةً لا يعرفون وجهتها، أو كمَن يعاند التيار ناسياً السباحة مع نفسه. يريدون المجد بلا صبر على مما يحمله، يعرفون اسم العلم ولا يعرفون ثقله، يرددون ألفاظ التقوى ولا تدخل أنوارها إلى أعماقهم.

فاعلم، نوّر الله قلبك، أن النفس لا تحتمل تناقض الإرادة بلا فعل، وأن هذه الفجوة جرح صـــامت أشـــد فتكًا من آلاف العقبات الظاهرة. فإن أردت التقدّم، فاستمع لهمس نفسك، وارتضِ الحق في ميولك، ولا تدّعِ ما لا يتبعه عملك، فإن خداع النفس أقســى القيود .وأما من يكثر العمل أمام الناس ليبهرهم أو يظهر ورعًا، فهو غالبًا أبعد عن الإخلاص. يعرض أعماله رايةً لتســتقطب العيون، ويخفي وراءها قلبًا هشًّــا يسـقط عند أوّل البلاء. يعيش من ثناء الخلق، وتعلّقه برأيهم سلسلةٌ غير مرئية تزعزع ثباته، ربما حتى تُســقط أركان دينه .فالإخلاص لا يطلب المظاهر ولا ينتظر التصـــديق البشــري، بل هو الثبات على رفض الكِبر، وهو داء الروح الأخطر. المُظهرون التديّن يغفلون أن مصـــداقية التزامهم أمام نظر الله لا أمام نظر العباد. وهؤلاء يتشتّتون أسرع ما يكون عند تغيّر الحال، وينكرون بعنفٍ ما كانوا يتباهون به، إذ قوّتهم لم تكن إلا قناعًا يخفي ضعفًا كبيرًا.

ومن تعوّد الرياء، جعل عمله سلعةً: إعلانُه لأعماله لم يعد حديثًا مع ربّه، بل تفاوضًا مع عيون الغرباء. ومن عمل ليرضي الناس ناسياً مراقبة الله، فقد خسر الدنيا والآخرة. قال تعالى :﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾

فهذه سِمة قلبٍ مريض، ونفسٍ نسيت حقيقتها، وضاعت في رغبة القبول الاجتماعي. والمرائي كثيرًا ما تخرسه أول فتنةٍ أو رحلة سقوط، خوفًا من زوال مكانته أو انكشاف قناعه، حتى قد يهوي إلى الشكّ أو الغضب أو كفر ما كان يصدح به .فالعرض الاستعراضي للأعمال ساحةٌ يختلط فيها الحق والباطل، والنور وظلاله، ولا يكاد يبيّن قلب صاحبها، إذ في الرياء بذرة حتمية للسقوط، لأن الزيف يتصدّع مع ضغط الابتلاءات .أما الصادق الحقيقي، فهو ذاك قليل الظهور، ذو القوة التي لا تتبدّد عند أول رياح، ساكتٌ معظم الوقت، لا يحب التجمّل بعمله، ولا يبحث عن حشد أو تصفيق. نوره دقيق، منسوب إلى توازنٍ لا يُنال إلا نادرًا؛ هو النفس المطمئنّة التي قال الله فيها :﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ هي التي بلغت طمأنينة داخلية كاملة بعد اضطراب وقلق، فاستقر قلبها على الثقة بالله، وتجاوَزت تقلبات طبيعة الإنسان الذي قال فيه ربه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ وتخطّت الخوف والشكّ والانفعال، فحقّ لها صفاء السكينة بإخلاصها. هذا الرجل يعمل من حبٍّ داخلي، لا ليرهب أو يُبهر، بل لأنه لا يستطيع غير ذلك، وثباته من وحدة انسجام القلب والعمل، لا من محيطه.

فالحكيم لا يُباع للنظرات ولا ينكسـر لمديحٍ أو ذمّ، يعيش في خلوتِه قلبًا، وهناك تدور معركته الحقّة. فالإخلاص جوهرة نادرة، ثقيلة وثمينة، تصدح في الداخل طويلًا بعد أن تخبو أضواء المظاهر العابرة.

الفصل السابع

في حال الوجد

حين يرى المؤمن روحه تعلو فوق حجب الدنيا، يدخل في حالٍ يصير فيه كل شيء نورًا. جسده يبدو وكأنه يضيء من الداخل، وتغدو كل حركته أخف، والزمن يتمدد. كل شيء يصبح رقيقًا، بطيئًا، ومع ذلك حيًّا بشكل عجيب. كأن الكون كله تنحّى ليترك المجال للانسجام التام. وفي هذه الحال يدخل في قول الله تعالى:﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ حركته بين الناس، التي كانت مسرعة أو مثقلة، تصير خفيفة متزنة، وحين يذكر الله يرتجف جسده كله. فالذكر يصير أكثر من ترديد كلمات؛ يصبح إيقاع الحياة ذاتها. نبضات قلبه تتناغم مع إيقاع ذكره، والذين من حوله

في المسجد ينبضون على الإيقاع نفسه، حتى لا يبقون إلا جسدًا واحدًا وقلبًا واحدًا.

هنا طريق النجاة؛ استسلامٌ كاملٌ للحق سبحانه، حتى تتشوش الرؤية من فرط الهيام، وينسى المؤمن عالم الحسّ ليغدو في عالمٍ تذوب فيه المادة أمام نور ذكر الله. كل إحساس يتكثف، وكل صوت يصير رجعًا، وكل صمت عمقًا بلا حدود. يدخل في حال الغيبة، حيث تضمحل الفروق بينه وبين ما يحب، هي سُكْر الأرواح المشتعلة بالمحبة، غوص في البحر الرباني حيث العقول المتيقظة ترى صورتها الحقّة.﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ هنا يتحرر الإنسان من أسر نفسه، ويصبح خفيفًا كالورقة، في انسجام كامل مع أمرٍ أعظم منه. إنها حال اصطفاءٍ يتجلى فيها الوجود الإلهي حقيقةً نابضة، تحيط به وتجمع بين روحه وجسده في نفسٍ واحد .في هذا المقام، تتذوق الروح حلاوة لا تأتي من دنيا ولا من حواس؛ طعم بلا هيئة، نشوة بلا شراب. لم يعد يتلو؛ بل الكلمة تتلو نفسها على لسانه. يقرأ كلام الله كأنه يسمعه منه، وهذه ذروة القراءة والتدبر.

ومن صـــور هذا الحال، ما يدرك المؤمن في المســـجد حين يرتفع الأذان ويبدو للعالم كله أنه أمســـك أنفاســه. جالسًـــا بين الصـــالحين، مطمئن القلب، يســـمع أول "الله أكبر" يتردد في الجو وكأن الزمن توقف. يتســـع صدره، تنغلق عيناه، وترتفع روحه. كل حرف من المؤذن يطرق باب قلبه. فيذكر قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـــهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُســـهِمْ أَلَسْـــتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَـــهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾

إخوة الصـــف من حوله ســـاكنون، لكنه يحس أرواحهم تهتز كأوتار آلة واحدة، فيكونون جســـدًا واحدًا يتنفس معًا، وقلبًا واحدًا يتجه إلى النور نفسه .قال العليّ العظيم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْـبَاحٌ الْمِصْـبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

ووصـف رسـول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم ذلك فقال: « حجابه النور لو كشــفه لأحرقت ســبحات وجهه ما انتهى إليه بصــره من خلقه . » ثم

كما دعا صـــلى الله عليه وآله وســـلم عند ميمونة، ندعو بدعائه: اللهمَّ اجعلْ في قلبي نورًا، وفي لســاني نورًا، وفي بصــري نورًا، وفي ســمعي نورًا، وعنْ يميني نورًا، وعنْ يســـاري نورًا، ومنْ فوقي نورًا، ومنْ تحتي نورًا، ومنْ أمـامي نورًا، ومنْ خلفي نورًا، واجعـلْ لي في نفســـي نورًا، وأَعْظِمْ لي نورًا. »

الفصل الثامن

في الشهوة والهوى

الشهوة نارٌ أودعها الله تعالى في قلب الإنسان ليبحث، ويطمع، ويتفوّق على نفسه. ليست مذمومة ولا ممدوحة في ذاتها، بل هي قوّة، شأنها شأن كل قوّةٍ أُوتيها الإنسان، إمّا أن تكون بركةً أو هلاكًا بحسب ما وُجهت إليه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾

فالرغبة تكشف حقيقة القلب: أيميل إلى الأرض أم يسمو إلى السماء؟ وقال جل شأنه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾

أما الهوى، فهو تلك النار حين يغذيها نســيمُ الدنيا حتى تلتهم الروح. فالمؤمن العاقل يعلم أن الرغبة إذا لم تُضــبط صــارت اســتبدادًا، وأن من يطيع كل ما يهوى لم يَعُد مالكًا لشــيء، بل صــار مملوكًا لشــهوته. قال رســول الله صــلى الله عليه وآله وســلم: «ليس الشــديد بالصــرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب«.

فإذا اســتُقامت الشــهوة وانضُــبطت بالإيمان، دفعت إلى الزواج الحلال، وإلى جمال العطاء، وهناءة البيت. أما إذا تحررت من ضوابطها، صارت سُــمًّا، لا نارًا تنير، بل حريقًا يحرق. فالأهواء كاليمّ: من رمى نفســه فيه دون ســفينةٍ غرق، ومن أبحر فيه بعلمٍ وتقوى أخرج منه اللآلئ. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « وفي بُضْعِ أحدِكم صدقةٌ. » فقال الصحابة: « يا رســولَ اللّهِ ! أيأتي أحدُنا شــهوتَه ويكونُ له فيها أجرٌ ؟ » قال صلى الله عليه وآله أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه فيها وزرٌ ؟ [قالوا : بلى ، قال :] فكذلك إذا وضــعها في الحلالِ كان له [فيها] أجر » وقال ابن القيم رحمه الله: « من ترك لذّةً محرّمةً لله، أعطاه الله يوم القيامة لذّتها على أكمل وجه، ومن نالها الآن حُرمها هناك أو نالها

ناقصـــةً، ولا يجتمع لذّة الدنيا المحرّمة ونعيم الآخرة لمن ترك لأجل الله واقترب منه. »

لكن الشـــقـاء كـل الشـــقـاء لمن جعـل هواه إلهـه. قـال الله تعـالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

فالعاشــق بلا إيمان كفراشــةٍ تشـدّها نار المصبـاح، تطير إلى ما يُحرقها وتســمّيه حرية، وهو عبودية .كم من رجل أَسَـرَه نظرٌ واحد، فصــار كله لامرأةٍ واحدة، لا يتنفس إلا بها، طبعت صـــورتها في روحه كما يُحرق الحديد بالنار، فلا تمحى. صـار عبدًا طائعًا لحضـورٍ يفوقه سـلطانًا، لياليه أرقٌ محموم، وأيامه تيهٌ لا يرى فيه إلا ملامح وجهها في كل غريب. لا يأكل، لا ينام، أحدهم قد يبيع دينه، ويخون أهله، ويلقي كرامته تحت قدميها لقاء إشـــارةٍ منها. فإذا غابت، انهار عالمه، وإذا نطقت، ارتجف كيانه، وإذا ابتسمت، ظنّ أنه رأى الرحمة ذاتها .خلت نفسه من غيرها، يسمع أوامر ذكرها كما يسمع العابد أوامر ربّه. ومنهم من يرمي نفسه إلى الهلاك، ظـانًّـا أن الموت راحـةٌ من هـذا الحريق. ومنهم من يبقى تـائهًـا نصف إنسانٍ نصفُ ظلّ، روحه معلّقة بعطرٍ أو نظرةٍ أو وعدٍ.

لقد رأيت رجالًا أقوياء جثوا لابتسامةٍ واحدة، وعلماء نَسُوا آيةً لسماع اسمٍ واحد، وشعراء كانوا مصابيح علمٍ أحرقتهم لهفةُ الهوى حتى لم يبق فيهم إلا حرفٌ واحد: اسمُها. فصارت عندهم سماءً وجحيمًا يظنونه نعيمًا .ولا شيء يفضح ضعف الإنسان مثل شهوةٍ بلا حدود.

وعلى الطرف الآخر، رجلٌ أشدّ بؤسًا — والعياذ بالله — لم يُحبّ قطّ، لكن جسده اشتعل، لا يبحث بعينه عن روحٍ بل عن هيئة، لا يريد امرأةً بل جسدًا. لا يرى جمالًا ولا معنى، بل ميدانًا لإطفاء نهمٍ حيوانيّ. تلك ليست رغبةً سامية بل جوعٌ لا يعرف الحياء، غريزةٌ بلا سموّ .يقترب منها كما يقترب من النار، يعلم أنها تحرقه، لكنه مفتون بحرارتها. يريد أن يمتلكها ليقنع نفسه أنه موجود، ليُسكِت الحيوان الثائر فيه. يخال نفسه قويًّا يملك شهوته، وما هو إلا عبدٌ لنوازع تنقاده كوحشٍ بسلسلة. فإذا قضيت لذّته، ماتت رغبته، واندفع يبحث عن أخرى، عن جسدٍ آخر، عن فورةٍ عابرة، عن نشوةٍ لا تمتّ للحب بصلة. لا يتذكر وجهًا، بل ظلًّا من لذّةٍ راحلة، فإذا انتهت، انقلب عنها كمن يلفظ ثمرةً أكل لُبَّها.

هذا لا يعرف انتظارًا ولا وفاءً، فالقلب عنده لم يتعلّق يومًا بشيءٍ نبيل. شهوته باردةٌ آليةٌ تكلّسها التكرار. يفتخر بما يزعم فتوحاتٍ يسميها حبًّا،

وهو لم يُحبّ قط، بل اســتهلك فقط. يهرب من العمق لأنه يكشــف خواءه. المرأة عنده ليســت آية الخلق، بل مرآةُ نهمه؛ يظن أنه يســتمتع، وهو يضيع؛ يظن أنه يغلب، وهو يهين نفسه .رأيت مثل هؤلاء يتسكعون بعد كل مغامرةٍ أكثر فراغًا مما كانوا، عيونهم مطفأة خلف بريق المتعة. يملّون الجسد قبل أن يعرفوه، لأن ما يبحثون عنه ليس موجودًا: لا حبًّا ولا سـكينة. أرواحهم صـحارى، لا يترك هوى الشـهوة فيها إلا آثارًا تمحوها الرياح عند الفجر .وإذا بكت امرأة اســتخدموها، مضــوا بلا التفات، يحسـبون أنهم انتصـروا وقد خسـروا كل معنى للكرامة. لا يدرون أن كثرة العناق بلا حبٍّ نزعت من قلوبهم القدرة على المحبة. لياليهم صــاخبة، لكن صـباحاتهم صـامتة، يسـتيقظون بين عطورٍ لا تعني شـيئًا، ينظرون للنســاء كأشــياءٍ بالية، يعلمون أنهم ســيعودون، لا لرغبةٍ بل لعجزٍ عن مواجهة الصــمت، ولخوفٍ من الفراغ، ولنزاعٍ يثبت لهم أنهم ما زالوا يملكون شـيئًا يُفتك بهم في الحقيقة .فمن أراد الشــهوة للاســتهلاك، التهمته هي نفسها؛ يظن أنه يملك الأجساد، والأهواء تملكه. لا يستطيع أن ينظر دون رغبةٍ، ولا أن يرغب دون فسـاد. تمتد يده قبل أن يميل قلبه، ويَعِدُ بلسـانه قبل أن يعقل فِعله، وتصـير حياته اندفاعًا دائمًا. لقد أصـبح

من كفر الهوى، حتى صــار هو نفســه كفرًا حيًّا .وعندها فقط يدرك — غالبًا بعد فوات الأوان — أن الحبّ الذي ازدراه هو وحده الذي كان ســينقذه؛ في النظرة التي هرب منها كانت راحته، وفي القلب الذي جرحه كان مدخل نجاته. لكنه لما أراد التملّك المطلق، خســر ذاته كلّها. ها هو الآن يهيم، أســير ذكريات، لا لوجوهٍ ولا لأســماء، بل لأحاسيس مبتورة: حرارة، عطر، أنين، تطارده كالأشباح. ليست نساءً تلك التي تلاحقه، بل شظايا من نفســه، متناثرة في درب شهواته .كان يقول: يريد امرأة طاهرة عفيفة، نفسًــا لم يعرفها أحد ســواه، قلبًا مصــانًا، نظرةً بريئة، وجســدًا بلا ماضٍ. أراد قلبًا طاهرًا كما يُنقّى البلور، وغفل أن يطهّر قلبه هو أولًا. يشــترط عليها ما لم يشــترطه على نفســه، يريد زوجةً كأنها نزلت من السماء، ويداه ملوّثتان بآلاف الذكريات المنسيّة. يطلب العفّة كمن يطلب غنيمة، ولا يفهم أنها لا تُهدى إلا لمن اســتحقّها. نفاقه غاص إلى أعماقه حتى لم يعُد يراه، يحاكم المرأة على ســترها، وكلمتها، ولحظتها، بينما يجرّ خلفه قوافل من المعاصــي. لا يحتمل أن تكون المرأة قد أحبّت قبله، وهو الذي أحبّ وخان وتلذّذ بلا خجلٍ ولا ندم .وفي هذا الهوى الجائر، تتجلّى أقبح صور القلب المتكبر. لا يبحث

عن المحبة، بل عن السيطرة، لا عن روحٍ تشاركه، بل عن ظلٍّ يعكس سطوته. يطلب الوفاء، ويقدّم الغدر. يقول بعضهم: «أريد امرأةً لم يعرفها أحد»، وهم الذين عرفوا الجميع! يخافون الفتنة، وأنفاسهم تنشرها. يريدون نساءً طاهرات ليستروا قذارة نفوسهم، ولكن الطهارة لا تُورث، بل تُجتذب إلى من يماثلها. قال تعالى:﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لكن من جعل شهوته سيّدة عقله أعمى عن هذه الحقيقة. فإذا انتهى به الحال وحيدًا، يبحث عن امرأةٍ لم يستحقّها، لام الدنيا والزمن، ولم يلم نفسه قط. فيشيخ ضجيجه، حنينًا لما لم يملك أصلًا .ثمّ هناك رجلٌ آخر، صموتٌ متأمل، لا يُظهر رغبته للعالم لكنه يحترق بها في داخله. لا يريد وجوهًا كثيرة، بل وجهًا واحدًا يكفيه. لا يطلب التملك، بل يرغب في الانتماء، وفي هذا الانتماء يذوب. يحمل شوقه كجرحٍ خفيّ، يخاف عرضه، يحبّ في صمت، بشدّةٍ تتجاوز الجسد ولا تبلغ سكون النفس. فحبه ليس فجورًا بل حُمّى، لا دنس فيه ولكن فيه خطر؛ لأن القلب إذا تشبّث بمخلوقٍ على هذا النحو، جعله معبودًا دون أن يشعر .رأيت هذا الرجل. يقف في الزحام هادئًا، لكنّ عينيه

لا تبحثان إلا في جهةٍ واحدة. يسمع مئات الأصوات، ولا يفقه سوى نغمةٍ واحدة، صوت من يرجوها. ليس فاسقًا، بل أسير، قلبه صادق لكنّه تائه. يخدع نفسه حين يسمي التعلّق حبًّا؛ يظن أنه يحب امرأة، بينما يحبّ ما أيقظته فيه من نقصٍ وحلمٍ ولا نهائية. صارت هي مرآةً لحاجته إلى السمو، ولأنه غافل عن ذلك، يتعذّب بعِلّةٍ لا علاج لها من البشر. فقال حكيم: «نار الشهوة، إن لم تحرقك لله، أحرقتك لغيره «.فهو في حقيقته لا يطلب المرأةَ، بل يطلب حضورًا قديمًا مفقودًا، إحساسًا أموميًّا بالأمان. لا يريد الحب فحسب، بل الطمأنينة، أن يُحتَضن دون أن يُسأل، ويُفهَم دون أن يتكلم. فحبه صرخة طفلٍ لم يُشبِعه الحنان. أُمٌّ غابت أو جفَت أو ظَلّت بعيدة، فخَلَّف غيابُها فراغًا لن تملأه حضن امرأةٍ قط. فيرى في عين الأنثى صورة أمٍّ يرجوها، ينتظر منها أن تداوي ألمًا لم يصنعَتْه هي .فيحبّ حبًا خانعًا مفرط الرقة، كمن يتوسّل العودة إلى البيت بعد التيه، يتشبّث بكلماتها كأنها وعودٌ أبدية، لا يطلب وصلًا فحسب بل ملجأً. فإذا ابتعدتِ الأخرى، لم يشعر بالفقد بل بالهجران الأول نفسه، وإذا أحبّ أحبّ بجنونٍ، ينهار من الشك، يرتجف من صمتها،

ويظنّ أن الكون كله رفضـــه في كلمةٍ واحدة. لا يحب كرجلٍ عاقل، بل كطفلٍ خائف.

ومع ذلك، يُرحَم هذا الرجل، لأن جراحه تُخفي صـــفاءً نادرًا، يحبّ بقلبٍ كامل، كإيمانٍ يصدر من الأعماق بلا حساب. غير أن الدنيا قاسيةٌ على الأرواح الرقيقة، تستهلكها أو تحطمها أو تدفعها إلى الجنون بالأمل. فما لم يُعطَ للطفل يظلّ يطلبه الرجل إلى آخر عمره .وهذا العاشـق الراكع أمام شـــبح فقده، ليس إلا حاجًّا اختلط عليه وجه الحبّ بوجه الذكرى. ومن ضـياعه الداخليّ يتّجه تلقائيًا نحو نسـاءٍ أكبر منه سـنًا، يظنّ أن في أعينهن الحكمـة، وفي أيـديهن الأمـان. يبحـث عن صـــدرٍ يقرّ روحـه الموجوعة، لكن ما ينتظره غالبًا شـــيء آخر. فبعضـــهنّ لســن أمهاتٍ في القلب، بل نســـاءٌ جريحاتٍ ومرهقاتٍ من الدنيا، لم تفنَ حاجتهنّ إلى أنوثةٍ ممدوحةٍ على الألســـنة. نظرتهنّ ليســـت عطفًا بل تملّكًا. عرفنَ الرجـال كثيرًا، وتعبن من التصـــديق بـالحـب، ومع ذلـك يطـاردنـه، في اللحم، في السيطرة، في افتراس الشباب.

رأيتهنّ وهنّ يرون في الشـابّ ليس نفسًـا تُحبّ، بل قوّةً تُمتصّ. تُرضـيهنّ حرارتـه، وتُبهرهنّ نظرتـه الفتيّـة، وتُمتِعهنّ براءتـه التي يجعلنهـا لعبتهم.

يقتربن منه بخفةٍ وحساب، بلمسةٍ محسوبة، وكلمةٍ تعبق كالعطر، يعرفن تفكيره قبل أن ينطق، فإذا وضعن أيديهن عليه كانت القبضة لا الرحمة. يلُففْنه بسحر أنوثتهنّ المجرَّب، يَعِدنَه بالسكينة ويُعطينه المتعة، يتغذّين من وهجه، من نقائه، كأن شبابه يُطفئ ندمهنّ .وهو، المسكين، يظنّ أنه وجد الفهم الذي انتظره عمره، يمنح نفسه بلا تردّد، مؤمنًا بأنها مختلفة، أنها تملك حنانًا أموميًّا لمسه لأول مرّة. حتى يدرك متأخّرًا أن نظرتها لم تكن رأفةً بل رغبة، وأن حضنها لم يكن شفاءً بل فخًّا .هذه النسوة جميلاتٌ بجمالٍ مكتملٍ مائلٍ للحزن، مضطربات الأنفس، عرفن حبًّا باكرًا فانكسر فيهنّ شيءٌ عميق. بعضهن خُنَّ، وبعضهن سكرن بسلطة الغلبة. يردن أن يُرَدن لا ليعشقن، بل ليؤكدن لأنفسهنّ أنهنّ ما زلن يملكن النار في صدورهنّ. فيتوجّهن إلى الفتى لا عشقًا، بل هربًا من شيخوخةٍ تقترب، وهو الغِر يظن العاطفة أنوثة .ويقودنه إلى عوالم ناعمةٍ مخادعة، كلماتها عطرة فارغة، وعيونها وعودٌ بلا وفاء. كل لقاء يُنهكه أكثر. يحسب أنه يأخذ، وهو يُعطي؛ أنه مختار، وهو مُستهلَك. فإذا رحلن، خلّفن فيه خرابةً داخليّة، كأنهنّ سرقن قلبه وروحه معًا. عندها يدرك بمرارةٍ أن كل امرأةٍ كبيرة ليست أمًّا، وأن بعضهنّ لا يرفعن بل

يَسحَبْن. منهنّ من لا تريد سلامًا بل دوارًا، وهؤلاء أخطر من فتنة الصبا، لأنهنّ يُدرِكن، ويُخطّطن، ويُغوين بدهاءٍ ناعمٍ يقطع كحدّ السيف.

إنهنّ خبيراتٌ بإرباك الرجل دون لمس، وتحويل النار في صـــدره إلى سـحابةٍ تحرقه ببطء. يعبثن بشـهوته كما يعبثن بالبخور، يُحيينه ليخنقوه. يوقظن فيه رعشةً لا يميّز فيها الخوف من المتعة. يظن نفسه عاشقًا، وهو الفريسة.

ومع ذلك، تبقى الاستثناءات. نساءٌ صالحات، قلوبهن طاهرة، وأبصارهن خافضـــة، شـــابت وجوههن بنور الله. لا يُغوين ولا يتســـلطن، بل يُربّين ويحفظن. حبُّهنّ حشـــمة، ولينُهنّ عبادة. هنّ نادرات، لكن إذا رزق الله رجلاً مؤمنًا إحداهنّ، شـــفته بحكمتها ورفعتْه بإيمانها. وأما الأُخريات، فيقتاتن على الشباب كما تأكل النار الهواء .وفي كل هذا، حقيقةٌ أدقّ لا يفقهها إلا القليل: أن المرأة لا تنســى أوّل من لمس قلبها حقًّا. ليس دومًا أول من عرفتـه، بـل أول من أيقظ فيهـا الحيـاة. ذاك الـذي ترك ظلّـه في روحها. تمرّ الســـنين، تتبدّل الأذرع، ويبقى طيفه في خلوة قلبها. تمحو أثره بالصلاة، تنساه بالمشاغل، لكن الذكرى ــ لعنها الله ــ تأبى الرحيل. يصير هو مقياسـها، فلا تُحب بصدقٍ إلا من فاقه. فإذا دخل رجلٌ حياتها

ولم يتجاوزه، ربما احترمته أو أحبّته احترامًا، لكن جزءًا منها يبقى هناك، في حضرة ذاك الأول الذي لمس جوهرها لا جسدها.

بعض النســـاء يُخفين هذا الأثر. يضـــحكن، يعبدن، يربين، لكن في أعماقهن طيفٌ حاضر، لا يراه أحد، لكنه يرافقهنّ كظلٍّ هادئ. هو الذي به ذقن النار والنور، الوهم والصـــدق. فإذا شـــاء الله أن يمنّ عليهنّ برجلٍ يعلو على تلك الذكرى، اندثرت آثار الماضـي برفق، فعرفت المرأة عشـقًا أرسـخ وأسـكن. ولكن كم هو نادرٌ مثل هذا الرجل !فأكثر الرجال يطوفون حول السطح، عاجزين عن الصبر لاكتشاف العمق، يريدون فتح قلعتهنّ لا زيارتها بخشـــوع. المرأة تَعلم بالفطرة متى يُقبِل الرجلُ عليها لذاتها، أو لما يبحث عنها فيها. تميّز النظرة التي تُعانق عن تلك التي تلتهم. وهنا جوهر المأساة في الشهوة: تعدُ بالاتحاد، لكنها غالبًا تزيد الفُرقة؛ تجذب الأرواح، ولا توحّدها.

الفصل التاسع

في الاحترام والخيانة

الاحترام الحقيقي يبدأ بالوفاء لمن يستحقه، أي: الصالحين، العادلين، المعلمين، الوالدين، الإخوة المخلصين، والقلوب الصادقة. الاحترام أن تقف في صف الحق، ولو كلّفك ذلك الصداقة أو راحة الناس. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ولا يوجد احترام صادق بلا إنكار للباطل؛ فمن يكرّم الظالم يخون المظلوم، ومن يجالس من يضرّ بأخيه وهو ساكت فقد ارتكب ظلمًا صامتًا. الاحترام في جوهره موقف تمييز. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.» فبئس الرجل من

يدّعي الإيمان ويسكت عن الظلم! ويحٌ له حين يصافح من آذى أخاه، ويبتسم لمن خانه، أو يضحك مع من أهانه؛ فهذا ليس احترامًا بل جبنٌ، وفساد قلبٍ مغطّى بصورة الحكمة.

الاحترام وفاءٌ، هو حفظ الجميل، والدفاع عن شرف من أعطاك بلا مقابل، وعدم نسيان من دعا لك سرًّا. ومن ترك أهله والتحق بمن أساء إليهم، فقد كرامته. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس منّا من لم يرحم صغيرنا ويوقّر كبيرنا.» فالاحترام ليس قولًا فقط، بل هو موقف القلب، يظهر في الدفاع عن الغائب، والنهوض للمظلوم، ورفض التواطؤ مع من يهينون الآخرين. وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إنَّ النَّاسَ إذا رأَوْا ظالمًا فلم يأخُذوا على يدَيْه أوشك أن يعُمَّهم اللهُ بعقابٍ » ويل لمن يهادن أهل الباطل خوفًا من غضبهم؛ فقد باع شرفه للجلوس مع المنافقين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وكثيرًا ما يكون من يسكت عن المنكر أسوأ من فاعله؛ فقد رأيت من يسلّم عليّ باسم الأخوة، ثم يجلس مع من يسبّني ويطعن فيّ، يضحك معهم ويتقاسم معهم الخبز والحديث، كأن الإساءة لم تكن، وكأن الوفاء ثوب يرتديه في وقت ويخلعه في آخر. فإذا قطعت صلتي بهم تعجبوا! ما فررت منهم

لشدتي، بل لبصيرتي؛ فمن يقف محايدًا بين المظلوم والظالم، فقد صار شريكًا للثاني .الاحترام يُختبر في المحن، ويُعرف الأخ الصادق بثباته حين يقع الظلم. من يحيّي أخاه صباحًا، ثم يجلس مع من طعنوا فيه، فقد خان الأخوة. يظن أنه حكيم حين يقف "فوق الخلاف"، لكنه إنما يخون قلبه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة«.

والخيانة لا تبدأ دائمًا باليد، بل غالبًا بالصمت وبالصحبة. فالاحترام رابطة قلب، ومن يقطعها لإرضاء الجميع ينتهي بلا انتماء، وهي فسوق للقلب ونجاسة للنفس. فما أقبح أن تبتسم لمن يهين أخاك! وما أذلّ أن تمد يدك لمن طعن قريبك! هذه وجوه مزيّنة برياءٍ زائف تفوح منها رائحة الغدر. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من أعطى لله ومنع لله وأحبّ لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل الإيمان«.

ومن يدّعي حبّ أخيه ويصحب أعداءه، فلا يحبّ لله، بل لنفسه، وهذا أرذل الحب. ومن يقول: «أنا لا أنحاز»، وهو بذلك ينحاز للباطل؛

فالصمت أمام الغيبة إقرار، والجلوس بين من يهين أخاك يمنحهم حضورك مبرّرًا، وابتسامتك تشجيعًا. قال تعالى :﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ فمن جلس معهم طوعًا فقد ماتت غيرته على أخيه، وذبل إيمانه، كالخشبة التي تميل مع الريح الأقوى. وهذه أخسّ وأقذر صور الخُلُق. الاحترام ليس ابتسامةً فارغة، ولا كلامًا منمّقًا، بل وفاءٌ في الغياب، ودفاعٌ في الخطر، وصمتٌ عند العار، صونًا لا خيانة.

وأقول أيضًا: من جالس أهل البهتان على أخيه فقد شرب من كأسهم، وإن لم يتكلم، فقد أصغى، وإن لم يوافق، فقد احتمل. ومن قبل الظلم صار شريكًا فيه. واليوم انطفأ الاحترام في القلوب كما تنطفئ مصابيح البيوت المهجورة، وقست الألسن، وتهاونت القلوب، وتزيّنت الوقاحة باسم الصراحة.

قديمًا، كان الشاب يخفض بصره أمام الكبير، والتلميذ أمام المعلم، والابن أمام أبيه. واليوم، يردّ عليهم، ويجادلهم، ويرتفع عليهم، كأن كلمة

الشاشة أرفع من حكمة العمر. منذ انتشرت المنصات، لم يعد الناس يعرفون ميزان الأرواح؛ كلٌّ يظن نفسه عالمًا لأنه قرأ سطرًا، أو تقيًّا لأنه نشر آية، أو شجاعًا لأنه سبّ من خلف شاشته. ذهب الحياء من الكلام، وخلا النظر من خشية الله. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إذا لم تستحْيِ فاصنَعْ ما شئتَ. »

وبات الناس يتكلمون بلا ضبط، ويحكمون بلا علم، ويهزؤون بكل من يعلوهم قدرًا. وكما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس منّا من لم يرحم صغيرنا ويوقّر كبيرنا.» فجيل الصخب استبدل جيل الاحترام، يسخرون من الشيخ، يقطعون كلام الأستاذ، يديرون ظهورهم لأمهاتهم حين ينادينهم، يخلطون بين الحرية والكبر، والاحترام صار كلمة يرددونها بلا فهم .فالاحترام ليس خوفًا ولا خضوعًا، بل اعترافٌ بالفضل، بأن تقول «لا أعلم» لمن يعلم، وأن تنصت قبل أن تتكلم، وأن تمسك لسانك ولو كنت محقًّا، إذا كان من أمامك يستحق شرف الصمت. وكيف تحترم الناس إذا لم تحترم نفسك؟

ومن غرق في البذاءة والعبث والسخرية لم يعد يبصر رفعة غيره، يظن الكل سواء، ويضحك من العاقل كما من الأحمق، من العالم كما من

الهزلي، وهناك تموت الحضـــارة: حين يعجز القلب أن يميّز ما ينبغي إجلاله عما ينبغي احتقاره. قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

قال «للناس»، فكيف بكلامك مع المسلمين!، {هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ} «أليس في ذلك قســم لذي حجر؟» فأين الكلمات الطيبة؟ أين الأولاد الذين يقبّلون يد أبيهم، والتلاميذ الذين يســكتون أمام شــيخهم، والشـــباب الذين ينصـــتون لشـــيوخهم بلا ســـخرية؟ اليوم يحبّ الناس الجـدال، لا التعلم، يحبون الردّ، لا الفهم، ويخبو نور الاحترام أمـام ضجيج الأنا. ولا تنسوا أن الله ربط عبادته ببرّ الوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـــانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ومن لم يوقّر والديه لن يوقّر أحدًا، ومن لم يخفض صوته أمام الكبار لن يرفع صوته أمام الله، ومن اعتاد قلة الأدب جعلها دينًا له.

الفصل العاشر

في الغضب وظلاله

حين يهيج القلب، تصـــير الكلمات حادّة، والحركات عنيفة، وتســـكت الرقة تحت ثقل النار الكامنة. فمن طبيعة الإنســـان أن تزلزلَه الانفعالات كما تهتزّ البحار تحت عصـــف الريح. غير أن الغضـــب لا يضـــرب الروح وحدها، بل يُلقي بظلاله الثقيلة على العلاقات بين الناس؛ تارةً صـــمتًا كئيبًا، وتارةً لهيبًا يلتهم سكينة القلوب. وهو يكشف نقص التوازن وضَعف الحصـــن الداخلي. فلن يدّعي أحد البراءة من هذه العاصـــفة الباطنة؛ إذ تنشـــأ من الجرح، ومن الظلم المتصـــور، ومن الأمـل المحبط، ومن الهشاشة التي يقبع بها كل إنسان في أعماقه.

فإذا مُسّ كبرياؤه أو مُنيت رغباته بالعجز، انطلق منه اللهيب الوحشي بلا قيد ولا وعيٍ. يغيم نَفَسه، ويحمرُّ بصره، وتتحول كلماته إلى سهامٍ مسمومة. في تلك اللحظات يفقد الإنسان ذاته، وينسى وقارَه ودماثة فطرته .فالغضب يمسخ الصواب خطأً، والخطأ صوابًا، ويعكّر صفاء الرؤية حتى يمشي العبدُ أعمى في ظلمة نفسه. يسكنه هذا الضيف الثقيل، فيغذي الأحقاد، ويصنع الخصومات، ويجعل القلب ميدانًا للقتال. والحقيقة أن الغضب صيحةُ ألمٍ من قلبٍ جريح، لكنّها صرخة تقود إلى الهلاك حين تضلّ سبيلها.

يا بائسًا منقادًا لغضبه! يا منسلخًا عن حلمه كالسفينة التي تموج بلا دفةٍ في العاصفة! أليس ذلك انحطاطَ النفس، وغرقَ البصيرة، وضياعَ الطريق إلى النور؟ فالغضب وادٍ مظلم تتيه فيه الأرواح، وهاويةٌ تبتلع العقل حتى لا يبقى للإنسان أثر في طريقه إلى الهدى. ومن سار فيه بغير وقايةٍ هلك في صمت غرقه الذاتي .كم من نفس جرفها التيار بعيدًا عن شواطئ الصبر والعفو! كم من رجل ظنّ أن في عنفه عدلاً، فإذا به يحفر قبره الروحي بيديه! أيها المكافح زوابع روحك، تذكّر أن عدوك ليس في الناس بل في

الإعصار الكامن في صدرك. ويلٌ لمن يكتب بيده وهو مغضب، ويقول بلسانه وهو محتدم، ويقسو بقلبه وهو غافل عن وعد الله للنفوس الهادئة :

﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾
﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾
﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

واسمع قول الحكماء: «من ملك غضبه وهو قادر على إنفاذه، فهو أشجع من منازلة ألف خصمٍ فوق الميدان.» هناك سبيل الخلاص.

ثم انظر إلى ذاك الرجل العصبيّ، المتوتر، المتقلّب بين شرر الغضب وضباب العمى؛ ظلُّ محاربٍ أضناه الإنهاك، يحمل في جوفه حربًا بين عقله وناره. فمهما كان لطيفًا، فإن أول من تصيبه موجةُ طيشه تكون أقربَ الناس إليه — زوجته المسكينة — تصير ضحيةً للبراكين المكتومة. يا لتعاسة هذا الرجل الأسير في إعصاره! لم يعد سيد نفسه. تلوح في عينيه العاصفة المهدِّدة، وينبض في أنفاسه الرعد، أما يده التي خُلقت لتَحنو فقد صارت ظلًّا مُهدِّدًا. عنفه المكبوت شاهدٌ على عجزه عن كبح شهوات الغضب. يا ويحَهُ، إذ يحوّل ضعفَه ضربًا، وهمَّهُ اضطرابًا يزلزل البيت، فيدوس بأقدامه عهْد المودّة الذي عقده الله بين نفسين.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. » فتأمّل هذا، فإن فقدان السكينة وخيانة الثقة هما أشد الخسارات.

يا من اسودّت بصيرته بغضبه، يسير بلا دفةٍ، يغرق في هيجانه الذي يُعميه. يده، التي ينبغي أن تمتدَّ للخير، تشهد على حزنه وانكسار روحه. فيبكي الحكيم سرًّا على انحدار هذا الإنسان، إذ يرى فيه ضياع أخصّ خصائص البشر: ضبط النفس، والرحمة الصامتة، والصبر الذي هو سلاح المؤمن. فافهم أن الغضب الجارف كالسيل إذا انفلت سدّه دمّر ضفّتيه. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ويلٌ لمن يغرق في فورة الغضب فيكسر سلامه، ويغطي نهاره بسحب الكدر. فطريق المؤمن أن يجاهد نفسه على اللين ولو شقَّ عليه، لأن النصر الأعظم أن يغلب ذاته لا غيره. سيّد المعارك في داخلك، وسيف النصر هو الصبر. فإذا هاج الغضبُ فاذكر أنه نارٌ، والنار لا تُطفأ إلا بالماء. من سجد لله أطفأ إعصاره، ومن سكت حافظ على هيبته.

يا طالب سكينة القلب، اعلم أنّ العفو قوّة لا ضعف، فهو يحرّر قلوبَ الطرفين. من عفا لله ارتفع قدره وذاق طعم الطمأنينة حيث لا تبقى للأحقاد جذور. فأطفئ نارك، ليصبح أثرها نورًا لا حريقًا.

ثم هناك رجلٌ آخر، لا تَظهر ناره في اللسان بل في اليد، يجد في الضرب نشوةً كالسُّكر. يتوتر دمه لمجرد ظلّ خصومة، ويهفو قلبه لصوت الشجار، يمشي بخطواتٍ ثقيلةٍ كأن الأرض ترتجّ تحتها. قليلُ الكلام، ظانٌّ أن قبضتيه تعوّضان عن حجّته. تراه في الجموع منجذبًا إلى الضوضاء كما تنجذب الفراشات إلى الضوء. يحب الصدام لا دفاعًا عن الحق، بل لأن الصراع يمنحه وهم الحياة. في عنفه نشوةُ الهروب من خوائه. ضحكته قصيرة، وراحته لحظية، فلا يهدأ حتى ينهك نفسه .قال الحكماء: «الشجاعة ليست في اليد التي تضرب، بل في القلب الذي يَصبر.» و«الرجولة أن تغلب هواك لا أن تغلب أخاك.» هذه كلمات قديمة، لا تزال تصيب من يعقل. فمن يطلب نصرًا خارجيًّا، هُزم باطنيًّا.

أما هذا الغاضب، لو أبصر وجهه حين الثوران لارتعد؛ يرى أنه لم يعد إنسانًا، وأن عينيه تعكسان صورة مَن يبغض، لأن الكراهيةُ مرآة. لكنّه لا يرى. الغاضب أعمى: لا يميّز بين الحقيقة والوهم، ولا بين العدالة

والانتقام. علامة النفس غيرِ المطمئنة أنها تظنّ مجدها في اندفاعها، والنزقُ لا يبني شيئًا، بل يهدم صاحبه. فذاك الذي يقاتل الجميع يخسر نفسه قبل خصومه .تأملْه: يجول بين الناس كمحاربٍ بلا عدوّ، يضرب هنا وهناك، غير مدركٍ أن عدوه في صدره. فإذا سكنت العاصفة، اجتاحه إرهاقٌ قاتم، ليس تعب الجسد، بل تعب النفس البعيدة عن سلامها. يتوق حينها إلى الطمأنينة، لكنّها تفر ممن يطلبها بالعداء .وهكذا يعيش القويّ في ظاهره، الضعيفُ في جوهره. عضلاته فولاذ، لكن قلبه مرتجف. ينتصر على عثرات ولا يجرؤ على مواجهة مرآة نفسه. قال الجليل: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾

فمن رفع يده قبل أن يرفع قلبه فقد سقط. وسقوطه ليس سقوط الجسد، بل سقوط المروءة. فكل مرةٍ يسلّم فيها نفسه للغضب، تذوب قطعة من شرفه في غبار المهانة. الناس تخافه، لكنها لا تحترمه، تصمت أمامه لا إجلالًا، بل رعبًا. يذكرون اسمه مصحوبًا بالحسرة: «اللهم صنّا من غضبه.» فيغترّ بوجَلِهم، ويحسب الرعب سلطةً، غافلًا أن الخلق لا تُخاف هكذا إلا الوحوش.

من يباهي بقوّته يجهل أن ريح الله تكفي لإسقاطه. فما أقسى جهله! فهو يخلط بين شدّة العضلات وثبات الإيمان، حتى إذا هبّ ابتلاءٌ بسيط خرَّ البناء. في داخله عاصفةٌ لا يُؤتمن ظلُّها، لا على غيره ولا عليه. فانظر إليه بعد انطفاء الغضــب: وجهٌ متعب، عينان خاويتان، حيرةٌ وندم. لا يدري لماذا قاتل ولا ضـدّ من، يشـعر فقط بالفراغ يثقل صـدره، فراغًا أثقل من العناء. وهذه هي عقوبة النفوس الضــالة: تحترق بنارٍ أضــرمتها بأيديها، وحين تدرك، يكون الرماد قد ابتلعتْه الريح .الغضــوب، مهما كثر حوله الناس، يظلّ وحيدًا، فقلبه حجرٌ لا تبلّله رحمة. يتعجّب من انصــراف الوجوه عنه، وهو صـاحب مملكةٍ من الخوف، مسجونٌ فيها وحده. فقلبه كالصـخر لا تشرب نداوة المغفرة، تمرّ عليه الآيات كما يمرّ النسيم على الجبل: لا يمسّ ولا ينبت. يعرف أسـماء العفو، لكنّها لا تبرح لسـانه إلى صـدره؛ صـارت معاركه لغتَه، وعنفه صلاتَه، وغضـبه صـاحبَه. بعض الناس يعيشـون في النار ويظنّونها ضـياء .تلك نهاية من ضـلّ في ظلمات غيظه، يتخبط في الحريق الذي أوقده بيديه. نســأل الله أن ينجّينا من أن نكون مثله: عبيدًا لغضـبنا، أسـرى لشـهواتنا. فإن من ملك قلبه فهو الملك، وإن كان بلا عرش.

الفصل الحادي عشر

في الحزن والأسى

الحزن، أيها المتأمل، هو أحد اللغات الخفية للروح. ينـــــزل بلا إنذار، ويقيم بلا طرقٍ على الأبواب، ويجلس في زاوية القلب كضيف صامت. لا يُعلن عن نفســـه، لكن يُعرف بثقل النظرة، وبطء الخطوة، ورعشـــة الصوت حين يتحدث عن الماضي. قال الله تعالى :﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ومع ذلك، فإن القلب يبتلى بالحزن، لأنه حيّ قبل أن يكون قويًّا. وقد بكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لفقد ابنه إبراهيم، وقال: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون.» فالحزن ليس مذمومًا في ذاته، بل هو جزء من الطبيعة البشرية.

غير أن من الناس من يجعل منه عرشًا، ويقيم فيه إقامة أبدية حتى ينسى أنه محطة وليست مقرًا. الحزن يزور النفس كما تزور الظلال النور، ليذكّرها بمصدرها. ومن لم يعرف الحزن لم يعرف عمق القلب. لكن من غرق فيه نسي الشاطئ، وغلف نفسه بالصمت حتى خلط التأمل باليأس.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنه قد يقترن بالحزن ما يجعله سببًا للمدح والثواب، وهو محمود بهذا الاعتبار لا بذاته. » القلب الحزين يرى أحيانًا أوضح مما يراه الذهن الساكن، فالألم يصقل البصيرة. لكنه لا ينبغي أن يغدو رفيقًا دائمًا؛ فهو ريح شتوية باردة تحمل صحوة. والمؤمن إذا حزن لا يزدري نفسه، ويعلم أن الحزن جزء من المسير، كما الليل جزء من النهار. قال الله تعالى:﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

وانظر كيف يحذّرنا سبحانه من أن يكون الحزن سلاحًا خفيًّا للشيطان إذا صار سجنًا، لا ممرًّا. فالقلب الذي يأسره الندم يشبه طائرًا يرفض الطيران خوفًا من العلو الذي ينجيه .وبعض الناس يعتادون حزنهم كما يعتادون رائحةً كئيبةً، ويعجزون عن العيش بغيرها، يلامسون جروحهم كأنها جواهر، ويجعلون صمتهم ستارًا يحجب عنهم النور. ومع ذلك، فالحزن

بذاته ليس خطيئة. وقال ابن القيم: «الحزن يبرد حرارة القلب الحيوية، وأما التلبينة فتقويها وتعيد للقلب نشاطه«.

تجد رجلًا لا يظهر حزنه بدمع أو شـكوى، وجهه سـاكن، نظره ثابت، لكن صمته ثقيل كالصخر. لا يصرخ بألمه بل يحمله كسرٍّ يتعذر البوح به. يُخيّل للناس أنه هادئ، لكن بداخله بحرٌ مسدود المنفذ. يمر العالم أمامه، والأصوات تختلط، والضحكات ترتفع، وهو يبقى على الأطراف كأنه ينظر إلى الحياة من وراء قضبان. ليس نادبًا على ميت، ولا فاقدًا لمال، بل على بُعد جزءِ من نفسه عنه؛ يومًا ما، من غير أن يدري متى، غادرته البهجة بصمتٍ، كصديقٍ يغادر دون ضجيج. ومنذ ذلك الحين يبحث عنها في الوجوه والمشاهد وذكريات البساطة، ولا يجد سوى صدى .يمشي بين الناس وقلبه متأخر عن خطاه، ويقل كلامه خشية أن تفضح الكلمات ارتجاف داخله. يبتسم أحيانًا لا رياءً بل ليطمئن من حوله، وحزنه عميق كأعماق البحر التي لا تمسها الشمس. وحين يأتي الليل، يظل مستيقظًا طويلًا، لا ليُفكّر، بل ليَشعر؛ فالحزن لا يغادره، بل يجلس عند رأسه يشاركه أنفاسه. اعتاد حضوره كما يعتاد المرء الألم، ويجد في هذه العادة راحةً مُرّة.

هذا الرجل لا يشكو ربه، بل يلوم نفسه على نسيانه، وتقصيره، وآماله المضللة. يعلم أن الدنيا عابرة، لكن قلبه أحيانًا يتشبث بها، وذلك ما يبكيه. لا يبغض الحياة، لكنه يعاتبها على فرارها وطعم ترابها. وقال الحكيم: «هناك حزن كريم لا يميت، بل يصقل القلب كما تصقل الحجارة المعدن.» وربما هذا الحزن هو ما يسكنه، فلا يجعله أمرًا، بل وقورًا .وتجد امرأة لا يأتي حزنها من النقص، بل من الامتلاء؛ فقد رأت كثيرًا، وسمعت كثيرًا، وحملت كثيرًا حتى أرهق قلبها، ليست آلام ضربةٍ، بل آلام آلاف الخدوش المستمرة التي أنهكتها كما تنهك المياه الصخر. لا تبكي، فقد سَكتت دموعها. تمضي في أيامها كما يمضي المرء في صحراء، بلا توقف، بلا صوت. حزنها خافت، ثابت، يترسب في عمقها كوزنٍ تعلمت أن توازن به حياتها .تصحو قبل الفجر، تُعدّ، تنظف، ولا يرى أحد شرخ الصمود. إذ تدرك أن العالم لا يصغي لنساءٍ متعباتٍ لكن شامخات. فتحتفظ بكل شيء، وتجعل كرامتها ملاذها. وأحيانًا، في لحظة هدوء، عند ترتيب ثوب أو سماع آية، ينفتح الشرخ، ويعبرها ارتجاف، وتهمس روحها: «إلى متى؟» ثم تستعيد نفسها، تطرد الفكرة، وتتابع العمل. تعرف معنى قوله تعالى:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ لكنها تتساءل: هل صمتُها صبرٌ أو إنهاك؟ أهو إيمانٌ أو تعب؟ ورغم ذلك، ترجُو أن ما حملته لم يكن عبثًا. وقال الحكيم: «هناك نســاءٌ جعل الألم من قلوبهن حقولًا، وكل أخدود ينبت فيه حكمة بدل الدمع.» لم تعد تنتظر الفرح من الأرض، بل من السماء.

وهناك نفوس زكّاها الألم أنقى من الســعادة، أفرغها من أوهامها ودعائمها الوهمية، فملأها الله بنوره. فالذي يحمل الحزن دون شكوى من القضاء، يجد في النهاية حلاوةً خلف شــدة الابتلاء، ليســت فرحةً صــاخبة، بل سـكينة تتسـلل كما يطلع الفجر بعد ليلٍ طويل. وما نراه بلا نهاية عند الله له أجل. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

فتأمل، فقد يكون جوهر الصفاء في صميم الحزن؛ سجدة تتبعها دمعة، أو ليلة ينفتح فيها القلب دون قصد، أو لقاء يعيد التذكير بأن الحياة، رغم الجراح، ما تزال نعمة. فمن عبر الألم يعلم أن كل جرح يصنع فراغًا يسع النور الجديد .والإنســـان في خلقه يحمل بحرين: بحر الرغبة، وبحر الحنين. أحدهما يدفعه نحو الدنيا، والآخر يعيده إلى أصـــله. بينهما يمشي مضطربًا، باحثًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾

وكثيرًا ما يولد حزنه من التباين بين ما يتمنى وما هو عليه، فهو مخلوق محدود يبغي الكمال، يتعلق بما يفنى، ويأسف على فقده، ينسى أنه مخلوقٌ للخلود، ويحزن لأنه لا يملك ما لا يُملك. والحكمة ليست في الهرب من الحزن، بل في فهمه، فكل ألم إذا قرأه القلب يفضي إلى إدراك ضعفه وحقيقة فقره إلى ربه .فالإنسان ليس شقيًّا لأنه يتألّم، بل لأنه يرفض ما تعلّمه المعاناة، أي أنه ليس سيد مصيره ولا مكتفيًا بذاته. والنضج الحق ليس غياب الاضطراب، بل السكينة في وسطه. العاقل لا يمحو حزنه، بل يحوّله إلى حمدٍ وثناء، ومن يبكي قلبه دون أن تنطفئ جذوته يحتفظ بضوء الحياة فيه. وسيبقى فيه صراعٌ صامتٌ بين حسرة الفقد وبصيرة التعلم. قال تعالى:﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾

فالإنسان بناءٌ متصدع، يحاول إصلاح نفسه بالأدوات ذاتها التي كسرتْه: الكِبر، وهم السيطرة، والتشبث بما هو فانٍ. يطلب السلام بلا ثمن، ويجزع إن لم يكن محور العالم، فيبكي مُقنعًا نفسه أنه يبكي معاني سامية، بينما المتألم صورته الشخصية.

وفي أعماق الإنســان هاويةُ حزنٍ، لا يبكي دومًا ما فقد، بل يبكي ما لم يعثر عليه بعد. يملّ من الدنيا لا لاحتقارها، بل لأنه اســتهلك طعمها بلا أن يجد النكهة التي يتوق إليها. كل نجاح ناقص، كل حب محدود، كل فرح هارب، ومع ذلك يتشبث بها كنَاجٍ متشبثٍ بخشبةٍ طافية، وهو يعلم أن الشاطئ ليس هنا، لكن يُفضّل الوهم على الغرق في المجهول .هكذا الإنسان: يعرف الحقيقة لكنه يختار النسيان، لأن الحقيقة القريبة تحرقه. لذلك هو دائم التوتر: أوســع من الدنيا، وأثقل من الســماء بلا تجرّد، يتأرجح بين حنين البداية وحنين النهاية، ويسمي هذا الحزن.

خاتمة

الحمد لله ربّ العالمين، مالك مفاتيح القلوب، الذي يسـوق كلّ نفسٍ بحكمته إلى حقيقتها. له المجد في السـماوات والأرض، وله ملكوت البداية والنهاية.

أيها القارئ، أطبِق عينيك على هذا الكتاب كما يُطبَق على مرآة، لا لتنسى صورتك، بل لتستعيدها. فإن قرأت هذه الصفحات بعقلك وحده، ستنطفئ كشمعةٍ أُنهك نورها، وإن قرأتها بقلبك سترافقك في سكون الليالي، في الموضع الذي تذوب فيه الكلمات ويبقى النور حاضرًا.

كل ما سُطِّر هنا له مقصد واحد: أن يُذكِّر الإنسان شرف جهاده الباطن، وعزّة الصبر، وعذوبة العفو، وصدق مرور الزمن. فالحياة رحلة، والمسافر العاقل لا يطيل النظر إلى الغبار الذي يثيره، بل إلى جهة خطاه. وتذكّر أن الإنسان ليس ترابًا فحسب، بل هو حاملٌ لنفخةٍ من الروح. فإذا غشّاها النسيان صار جسدًا هائمًا في تعاقب الأيام، وإذا أوقظتها اليقظة صار نورًا يمشي على الأرض.

ومعاد الإنســـان لا يُقاس بما يملك، بل بما يبقى عليه حين يُنزَع منه كل شيء؛ هناك يُعرف إن كان عُمده في الله أم في ما ينهار. ولا تظن حياتك أقصـــر من أن تبلغ الحقيقة، فالقلب قد يقطع في ليلة ما لا تبلغه الأقدام في ألف عام، إذا أقبل بكليته على ربه. وإن طالت بك الطريق، فاعلم أنها وُهبت لك لتزرع ما يصحبك إلى قبرك: نفسًا مطمئنة، ونيّةً صافية، وذكرياتٍ حيّة من الذكر .فأغلق هذه الصـــفحات كما يُغرس البذر في الأرض. قد لا ترى الشـــجرة غدًا، لكنها تُثمر حين يشـــاء الله. لا تحفظ الحروف فقط، بل احفظ المسارات؛ فالكلمة لا تُنجي إلا من سار بها. وسِـر حتى تصبح حياتك آيةً معايَشـة، ودليلًا على ما علمت .أختم هذا المكتوب الضـئيل عند هنا، إذ لا تميل نفســي إلى الإطالة. الكلمات لا ينبغي أن تتجاوز ما يحتمله القلب. واعلم أن كل ما كُتب ليس علمًا محسومًا ولا رسالةً قاطعة، بل هو انعكاس لمشاهداتي وتجربتي وما رأيته من الناس في المســير. قد أكون أخطأت، أو أســأت الفهم، أو التعبير؛ فاللوم عليّ إذ كل نقص مردّه إلى ضعف الإنسان. أما إن أصبت، وبلغت حقيقةٌ قلبك، فأحمد الله، وحده مالك الحكمة والاســتقامة، وأتنحّى أمامه.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمد، خاتم النبيين، هادي القلوب الصادقة، ورحمةً مهداة للعالمين. اللهم صلِّ عليه، وعلى آله الطاهرين وأصحابه الصادقين، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك عليهم كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

سبحانك اللهم وبحمدك، حتى تبلى الأقلام وتعود الأرواح إليك.

ملاحظات

- لقد ذُكر الشـــاعر الرومي مرارًا، لكننا نتبرأ من معتقده الذي هو كفر، فهو وأتبـاعـه قـد كفروا، وإنمـا نـذكر الخير فقط بتمييز ومعرفة.
- هذا النص كان مكتوبًا في الأصـــل باللغة الفرنســية، ثم أعدتُ كتابته وترجمته إلى العربية، وقد يكون فقد شيئًا من معناه أو من جودته، وربما ارتكبت فيه أخطاء، فاللوم عليّ.